إنسان العصر الحجرى فى القرن الحادى والعشرين

نسمع عن إنسان العصور القديمة: عصر الكهوف، حيث كان يسكن ويعيش، وعصر الأحجار، التى منها صنع أدواته وأسلحته، وعصر الحديد، وعصر البرونز قبل الميلاد بنحو ألفى سنة... وكلها عصور تسبق التاريخ المدون. تحتفظ المتاحف بما يعثر عليه المنقبون من بقاياها وآثارها. ويتخيل العلماء والفنانون (المصورون، والرسامون، والسينمائيون) ما كانت عليه حياة هؤلاء البشر الذين سبقونا على أرضنا بآلاف السنين.

لكنهم لم ينقرضوا....

على نفس هذه الأرض، مازال أقوام يعيشون اليوم، تماما كما عاش إنسان العصر الحجرى، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويمرضون ويتعاركون، فى بقعة محدودة منعزلة لم يغادروها، ولم يخرجوا منها، ولم يدخل إليها أحد أو يقترب نحوها، فى مناطق متفرقة من عالمنا: كحوض نهر الأمازون شمال أمريكا الجنوبية، وجُزر بالمحيط الهادى، ومواقع متناثرة شمال وغرب أستراليا ونيوزيلاندا.

«جان بيير روتيبُّو» بلجيكى سينمائى، رحالة مستكشف، متخصص فى علم دراسة السلالات البشرية ، وخصائص وسمات كل منها وتطورها الحضارى. ساقته قدماه إلى مكان بعيد بعيد ، فى أقصى الجنوب الشرقى من قارة آسيا.. أو شمال أستراليا .. فى الجزء الشرقى من جزيرة غينيا الجديدة، أو بالتحديد فى منطقة

«بابوا»، وتسمى أيضا بابوازى، من تلك الجزيرة [1]. وهناك يشهد ويصور موقفا تاريخيا إنسانيا نادرا ما يتكرر:

مجموعة من الناس.. من سكان بقعة معزولة كلية عن العالم، يخاطر بالوصول إليهم ثم يحتال - بعزيمة وذكاء ومشقة وصبر طويل - لكى يقتربوا منه، ويروا بأعينهم لأول مرة إنسانا غريبا، حسبوه من كوكب آخر. إنهم يشهدون لأول مرة فى حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم كيف تشتعل النار من عود ثقاب (كبريت)، وسحْر المرآة التى تُظهر الوجوه، ويعرفون لأول مرة طعم الأرز، والسكر والملح والبسكويت، وملمس الملابس... فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٩٤ بعنوان: «الهندى الأبيض» يسجل هذه اللحظات المثيرة، لرحلة خاطفة عبر الزمن من العصر الحجرى إلى القرن الحادى والعشرين..... ولم تستغرق أكثر من ٣٦ساعة!.

السبت ٢٧ نوفمبر ١٩٩٣م.

بمجرد حصولى على تأشيرة دخول سياحية، ركبتُ السفينة المتجهة نحو ميناء «موريسْبى» عاصمة إقليم بابوازى فى غينيا الجديدة. أخفيتُ آلات التصوير داخل معدات المعسكر. مهمتى المحددة: العثور على سكان من بابوا لم يروا إنسانا أبيض أبدا من قبل. بدا لى أن هذا الأمر مستحيلاً. لقد حدثنى البعض عن قبيلة «لياوِب»، ولكن بعد أن تحريت، تأكد لى أن بعثة عملية تقيم الآن فى قريتها.

أطلعنى صديق فرنسى مقيم فى بابوازى على قصاصة من صحيفة محلية، تذكر شيئا عن قبيلة مجهولة، علمت اسمها فيما بعد: «تولامْبى». فقد شاهد موظف الصحة من أهالى بابوا رجلين من تلك القبيلة فى منطقة جبلية شديدة العزلة بين إقليم «الخليج» وإقليم هايلاندز الشرقية فى قلب السلسلة الجبلية «أوين ستانلى».

---

(١) غينيا الجديدة: أكبر جزيرة فى العالم بعد جُرينْدلاند بالشمال ومساحتها ٧٧١٩٠٠كم بدون الجزر الصغيرة الساحلية، وموقعها شمال أستراليا. منطقة غابات استوائية غزيرة الأمطار قليلة السكان، وهم بدائيون، نصف الجزيرة الغربى تقريبا فى حوزة إندونيسيا وتسميه إيريان الغربية (مليون نسمة) والنصف الآخر تحت إدارة أستراليا، والجزء المسمى بابوا أو بابوازى يقع جنوب شرق الجزيرة، ويسكنه نحو ثلاثة أرباع المليون والجزيرة عامة قليلة الاختراق، سكانها بالداخل(بعيدا عن السواحل) قبائل متناثرة منعزلة..

لكننى كثيرا ما حلقْت منذ عام ١٩٨٥ بالطائرة الهليكوبتر فوق السهول العليا لغينيا الجديدة، ولذا.. يداخلنى الشك فى وجود قبائل كاملة العزلة فى هذا الجزء من الجزيرة. وذكَرت قصاصة الصحيفة أن موظف الصحة الذى شاهد الرجلين طلب من المفتش المختص بالإشراف على المنطقة، ابتعاث دورية حكومية للبحث عن أفراد هذه القبيلة، لتطعيمهم وإحصاء عددهم. شعرت بحيرة.

٢٠ نوفمبر...

ركبتُ الطائرة إلى «جوروكا» التى منها جاء الخبر لأستطلع الحقيقة، وتركت فى «موريسبى» زميلاى: فيليب، وميشيل، اللذين كانا فى صحبتى بالفلبين، وانتهينا من تصوير شاق لقبيلة «أجْتا».

نزلت بفندق «عصفور الجنة»، وبدأت تحرياتى. فعلمت أن الحكومةالمحلية لم تفعل أى شىء لتنفيذ مطلب موظف الصحة، وذلك بسبب عجز الميزانية. ثم كانت المعجزة!.. «آللا» موظف الصحة الذى أشار إلى وجود «تولامبى» موجود حاليا فى «جوروكا». أفلح موظف بالفندق فى العثور عليه، وجمعنى به. أخبرنى أنه ممرض، وأن هؤلاء المنعزلين الرحل، لم تصل إليهم حتى الآن أية دورية حكومية، ولا بعثة تبشيرية، رغم أنهم موجودون فعلا بالمنطقة. وأبلغنى أيضا أن هذين الرجلين من قبيلة تولامبى، علم من لقائه بهما أنهما لم يشاهدا مطلقا أعواد الثقاب (الكبريت)، ولا السكين، ولا الأرز، وهى أول الأشياء المعهودة عند أهل الغرب، كما أنهما لم يشاهدا مطلقا إنسانا أبيض.

ترددت، وانتابنى القلق يوما كاملا. إذا كان فى الأمر خدعة.. فإن تكاليف هذه الرحلة الباهظة، التى لم يسهم فيها أى أحد، أو أية جهة، سوف ترهقنى كثيرا. ثم غلبنى الفضول وحبى للاستطلاع كالعادة. استدعيتُ رفيقاى إلى جوروكا، وعرضت على «آللا» أن يصحبنا؛ فوافق على الفور. اشترينا على عجل قطعة كبيرة من البلاستيك الأزرق، ومرتبة من الإسفنج الصناعى، وناموسيات، وبعض أوانى الطعام، ومائة كيلو جرام من الأرز، وكمية من البسكويت، والبن، وعددا من علب الكبريت والمرايا... لكنى فى حيرة وحذر.

فالاستعداد لهذه المهمة غير كاف، نظرا لطبيعتها وسريتها. ولكى نصل إلى الموقع الذى شوهد فيه الرجلان التولامبيان، لابد لنا من طائرة هليكوبتر، إذ لا يمكن عبور الأنهار التى تجرى عند حدود «أُويا ـ أُويا»، ومن عندها تبدأ رحلتنا.

استأجرت خدمة طائرة صغيرة من طيار أسترالى، أبلغنى أنه حاول منذ فترة قريبة أن يهبط فى هذا الموقع بطائرته المقلة لبعض الجيولوجيين، ولكنه اضطر إلى العودة من حيث أتى، نظرا لسوء الأحوال الجوية. وقال لى صراحة أنه لا يضمن لنا عودته لاسترجاعنا. وهذا يعنى أننا نغامر بأن نظل محصورين لبضعة شهور فى أشد مناطق العالم عزلة وخفاء.

٣٠ نوفمبر.....

فى لحظة الاستعداد للإقلاع من جوروكا، كان لزاما علينا أن نستغنى عن نصف أحمالنا، تخفيفا عن الطائرة الهليكوبتر الصغيرة. بعد أربعين دقيقة من الطيران، هبطنا نحو المواقع الجبلية المغطاة بالغابات الكثيفة. تردد الطيار فى عبور الممرات التى تتخلل الجبال، خوفا من عدم وضوح الرؤية، بسبب السحب الكثيفة المحملة بمياه الأمطار.

لامسنا بالطائرة أطراف الأشجار، متنقلين من واد إلى آخر، لكى نهبط فى النهاية... فوق مساحة مكشوفة وحيدة، قَطع أشجارها أفراد قبيلة «أويا ـ أويا» الذين لم يروا فى حياتهم كلها طائرة هليكوبتر.

قابلنا رئيس القرية (اسمه واوى) التى تسكنها هذه القبيلة. وبمساعدة «آللا» شرح لنا كيف كان اتصاله بأفراد قبيلة أويا ـ أويا. قال واوى: «كان الأويا ـ أويا فى نزاع وحرب دائمة مع التولامبى. وكانت الحدود الفاصلة بيننا وبين أعدائنا القدامى تسمى «النهر الكبير». وذات يوم التقطْتُ غلاما كان يمشى وحده على شاطئ نهر. إنه تولامبى يتيم، ربما كان تائها أو مهملا، لم يهتم به أحد. اصطحبته إلى قريتنا وعلَّمته لغتنا، وأطلقنا عليه اسم «جيون». بعدفترة، خرجت يوما مع جيون إلى حدود المنطقة التى تفصلنا عن تولامى، لكى أشرح لهم أننا يجب أن نعيش فى سلام. وبفضل جيون استطعت أن أنقل إليهم هذه الرغبة ويفهمونها جيدا.. فرجع معى إلى قريتنا اثنان من المحاربين عندهم،

فشاهدوا لأول مرة سكينًا، ومرآة، وبعض الأشياء التى أحضرناها من العالم الخارجى. فى نفس ذلك اليوم حضر إلينا الممرض «آللا»، لكى يعطينا بعض الأدوية. ثم أكد لنا شيخ القرية وجود خمسين على الأقل من التولامى على بعد ثلاثة أيام من السير. وهو الوحيد الذى يعرف الطريق المؤدية إلى هناك».

فى صباح اليوم التالى رحلنا إلى النهر الكبير. تضم قافلتنا عشرة أفراد، تتبعهم خمس نساء يحملن مواد الطعام، وفى القافلة آللا، واوى، جيون ميشيل، فيليب، وأنا. اخترقنا جحيما من جذور الغابات المتسلقة المتشابكة المتطاولة، وسيقان الأشجار المتساقطة، والأوحال المتراكمة العطنة، مع تواصل الأمطار الغزيرة. إنها تهطل بلا انقطاع اثنتا عشرة ساعة فى اليوم.

إن الغابة كثيفة بدرجة لا تصدَّق. والحشرات مصاصة الدماء تخترق قماش السروال السميك (الجينز)، وتتسلل إلى داخل الحذاء المسدود بمادة لاصقة. والسماء لا تُرى من داخل الغابة. أصيب ميشيل بجرح فى قدمه. وشج أحد الحمالين أصبع قدمه بضربة خاطئة من بلطة، فوجدا صعوبة متزايدة فى مواصلة المشى. وكلما عبرْنا قمة أو مرتفعا، سمعنا من بعيد صوت هدير النهر الكبير، ثم يتلاشى الصوت مع انحدارنا نحو السطح. وكلما انتقلنا من واد إلى آخر، خُيل إلينا أن الأمل الذى نسعى ونشقى من أجله يتباعد عنا شيئا فشيئا، وبلا توقف، إلى أن بلغنا آخر المدى فى التحمل والصبر. وأخيرا فى اليوم الرابع، لم يعد صوت النهر الهادر يخفت أو يختفى.. فقد وصلنا بالفعل إلى الحدود التى تفصل أويا ـ أويا عن تولامبى. من المستحيل متابعة السير بسبب الجرحى والمكدودين. قرر واوى أن يرحل مع جيون، بحثًا عن أفراد من التولامبى. كان مقتنعا بأن الاتصال بهم لا يجب أن يأتى جبرا.. بمعنى أننا لا نتصل بهؤلاء القوم، إلا إذا رغبوا هم فى ذلك. وطال الانتظار والفكر.

هل سيأتى إلينا التولامبى؟. قطعنا شجرة طويلة صنعنا من ساقها جسرا مؤقتا مرتَجَلا، يرتكز طرفاها على صخور الشاطئين. أثناء الليلة الأولى، جرف النهر الجسر الذى أقمناه؛ فمددنا جسرا آخر. ساءت حالة ميشيل، وخشيتُ أن تهدده الغرغرينا. وتعفَّن الجرح بسبب ميكروبات تطلق غازات تتلف الأنسجة.

أخرجنا من جرحه كميات كبيرة من الصديد والدم المتخثر. قررت أن نمهد مساحة مناسبة من الأرض تصلح لهبوط الهليكوبتر، ثم أُرسل إشارة استغاثة بجهاز اللاسلكى معى، محددا موقعنا بالتقريب، وموعد انتظار الطائرة، ولكن الجهاز تعطل.

الاثنين ٦ ديسمبر...

انطلق اثنان من الحمالين داخل أعماق الغابة يحملان رسالة الاستغاثة إلى مراواكا، فيصلان إليها مشيا بعد عدة أيام، فهناك أقرب راديو إلينا. ومن هناك يتم تبليغ شركة الهليكوبتر فى جوروكا. عند منتصف النهار فى كل يوم، نشعل نيرانا كثيفة، ونبسط بجوارها قطعة البلاستيك الكبيرة الزرقاء، لعل أحدا يرانا بوضوح من الجو. لكن للأسف، لم نر أبدا هليكوبتر، ولم يرجع إلينا الحمالان من مارواكا. لم يعد لدينا تقريبا طعام، والسماء لا تكف عن دفع الأمطار، النفْس ينتابها الضيق والاكتئاب الشديد. هل قامرتُ بنفسى وبمن معى فى هذه المغامرة؟، هل نحن ضحية ماكر خبيث من بابوا، يريد أن يبتز مالا؟.. وفجأة، إذا بنا نسمع صياحًا من الناحية الأخرى من النهر. إنه واوى، ومعه جيون يبشرنا بأنه نجح فى العثور على مجموعة من ستة وعشرين تولامبى، وأنه بعد نقاش ممل طويل، وافق سكان الغابة الرُّحل على مقابلتنا، وها هم ليسوا ببعيد.

فى داخل المعسكر حيث نقيم، بدأ الاستعداد للمعركة!. أمرتُ كل الحمالين أن يختفوا تماما، حتى لا يُخيفوا التولامبى، وأنا أعلم أنهم سرعان ما ينفرون بشدة ويغضبون. تحامل ميشيل على نفسه، واستعد بدوره لأداء واجبه إذا تطلب الأمر، من بعيد. لم يبق إلا فيليب. قَبع على بعد نحو عشرين مترا، مختفيا داخل عريش أخضر من فروع الأشجار، لا يظهر منه إلا عدسة الكاميرا، فلا يلحظها أحد. ووقفت أنا عند حافة الجسر المصطنع. من خلال المنظار المكبر، أخذت أبحث بدقة عن أية حركة تستبين من ثنايا النبات والأشجار على الشاطئ المقابل من النهر. مر الوقت متثاقلا بطيئا. نظرتُ إلى ساعة يدى عندما لمحت أول اهتزاز يتحرك بين أوراق الشجر. إنها الواحدة ظهرا وثمان وأربعون دقيقة بالضبط.

اقتربَتْ مجموعة صغيرة من أفراد القبيلة تنحدر فى حذر نحو النهر. رأونى واقفا. تقدم ثلاثة محاربين وهم يطلقون صيحات. إنهم عراة، إلا من شرائط تتدلى حول أسفل البطن، مصنوعة من القش، أو لحاء الشجر، يزين الرأس ريش طويل من طائر عصفور الجنة، وعظْمة من طائر النعام الأسترالى (نوع من النعام يسكن الغابات) تنفذ من الأنف، وشىء يشبه الوشاح أو العقد الطويل يتدلى على الصدر، مصنوع من قواقع النهر (من المرجح أنه علامة على الانتصار وهزيمة القبائل المعادية) وسلاحهم القوس والرماح.

لوَّح أحدهم عاليا بفأس من الحجر (لم نبالغ إذن عندما قلنا نحن فى المقدمة إن العصر الحجرى يعيش بيننا!..)، فتوقفوا جميعا عند منتصف الجسر. رجعوا، ثم عادوا وأقبلوا مشْرعين الرماح فى اتجاهى. يا للهول!. الخوف يتملكنى لقد أخبرنى (واوى) من قبل أن التولامبى لا يعتقدون أن الرجل الأبيض له وجود، فإن وجد، فهو يقينا قادم من مملكة الأموات. إن خوفى يتحول إلى رعب. وقد راودتنى فكرة أنهم ربما قذفونى برماحهم، ليروا هل ستخرق جسمى أم لا، لمجرد المعرفة!. ولماذا لا يكونون مكتشفين مثلى؟!. إن حركتى بطيئة، متثاقلة. لقد توقف الزمن. وفى داخلى يغمرنى شعور بأننى الآن كريستوف كولومبوس و«ا ـ ت» (E.T. القادم من عالم آخر فى الفيلم الأمريكى الشهير) معا!.

هأنذا أمد نحوهم ذراعاى منبسطيْن، وكفاى نحو السماء، وتلك علامة السلام.. فإذا بالذى يبدو أنه رئيس الجماعة ـ علمت فيما بعد أن اسمه أنجيو ـ يتقدم نحوى. أشار الرجل ذو البلطة الحجرية إلى النسوة المصاحبات للمجموعة أن يبتعدْن إلى الشاطئ الآخر من النهر. علمت بعد ذلك أن اسم هذا البلطجى (أى حامل البلطة!) سانجوجا. ثم عاد يقترب منى، فلمح فيليب الذى تسلل ليكون غير بعيد عنى لحمايتى إذا لزم الامر، وفى يده آلة التصوير، يلتقط مناظر الحدث التاريخى، فلا تضيع فرصة.. فوقف صاحب البلطة متأملا فيليب فى دهشة، وربما ظنه حيوانا ذا عين براقة واسعة (عدسة الكاميرا!). ثم أخذ يقترب أكثر وأكثر. مد إليه فيليب يده. وقف سانجوجا مترددا، ثم مد يده.

تلامست الأصابع أخيرا. وفجأة يستدير سانجوجا ويتراجع مهتزا، كأنما أصابه مس كهربائى!. ابتعد يرقب فيليب بحذر. ثم يعود. يتلامسان مرة أخرى، ثم قفزة ثانية متباعدة كالمصعوق. الآن، وقد أصبحتُ وحدى منفصلا عن زملائى، استدرت جاعلا ظهرى إلى النهر، فإذا بى فى مواجهة آنجيو كبيرهم، ومعه شخص آخر تولامبى (اسمه آند يوتو) يبدو عليهما الحذر الشديد.

إننى أتوقع الخطر فى كل لحظة. والخطر هنا هو عين الهلاك. لكننى ابتسمت وأنا أُظهر لهما علبة كبريت. ببطء شديد فتحت العلبة، وأخرجت عودا، ثم حككته؛ فاشتعل. قرَّب آنجيوأصابعه من نار الثقاب، فلسعتْه. صرخ وأسرع نحو النهر يغسل يده ويهدئ من آلام الالتهاب. أحسست أن نبضات قلبى تتزايد. إن التولامبى يعرفون أن النار تشتعل بالاحتكاك المتواصل الشديد، فلم يدرك آنجيو أن هذا اللهب اشتعل بمجرد حكة واحدة من طرف عود رفيع صغير. عاد نحوى. وبعد اهتزازات بسيطة بجسمه، كأنها رقصة كهنوتية، تناول من يدى علبة الثقاب، فأخرج عودا وضعه فى فمه. حاول أن يلوكه، لكنه بصقه فى الحال. إنه غريب عن مذاق ما تعوده من مأكولات. احتفظ بالعلبة، وفى المقابل.. أعطانى قوقعة. وهكذا تم الاتصال، وسقط حاجز الحذر والخوف. بعد عشرين سنة من الاكتشافات والمغامرات والتجوال العلمى داخل الغابات كان هذا بالتأكيد أكثر المواقف عندى إثارة، وأشدها شعورا بالغبطة والانفعال العميق. تشابكتْ أيدينا، علامة على السلام والتكاشف. وقد استغرق «حفل» التقارب أو التعارف هذا نحو ساعتين.

مال المحاربان الآخران نحوى يَدْعكان ذراعى، ليعرفا: هل لون جلدى مصطنع؛ فيزول باحتكاك أيديهما؟، ثم أخذا يجسان ويتحسسان، ليتأكدا أننى من لحم وعظم مثلهما. أمسكا شعر رأسى، وتشمما رائحة إبطى. أدهشتنى رقة حركاتهما. صاح آنجيو بتعليقات، لكى يُسمعها النساء والأطفال وهم يرقبون المشهد من الشاطئ الآخر، فى مزيج من مشاعر الخوف والإثارة. قدمتُ بعض الملح إلى سانجوجا. فلما تذوقه ضرب بقبضة يده على مؤخرة رأسه. إنها

علامة على السرور الشديد عند التولامبى. ثم اصطحبتُ تلك المجموعة الصغيرة إلى معسكر إقامتنا على بعد نحو مائة متر داخل الغابة. جلسوا يرقبوننا بكل الدهشة والاستغراق. لقد اختفى الخوف والحذر. وبدأت سلسلة من التعجبات: فهذا سكين، وحبات من الأرز يطحنونها بأسنانهم، ويتذوقونها لأول مرة، وجهاز تسجيل يعيد سماع أصواتهم. ثم قدمت إليهم مرآة صغيرة. لم ير هؤلاء المحاربون فى حياتهم من قبل شيئا كهذه. أمسكها آنجيو فاكتشف صورته بها. تراجع قليلا. غطى سطح المرآة بورقة شجر كبيرة. نظر إلى ظهرها، ربما ليتأكد أنها خالية من روح متوارية بها. رفع ورقة الشجرة ثم«بحلق» فى صورته المنعكسة بالمرآة، تحسس ـ وهو ينظر متعجبا ـ ريش الطائر فى رأسه، والعظْمة البارزة من أنفه، والأصداف المتدلية على صدره. لم يعرف أن الوجه المطل من المرآة هو ذات وجهه.

يحزننى أن هذا اللقاء لم يدم أكثر من ست وثلاثين ساعة، صمموا بعدها على الانصراف. حاولت بكل جهدى فى تلك الفترة أن أصورهم فوتوغرافيا وتليفزيونيا، وأن أتعرف على بعض طباعهم وسلوكهم، ولغتهم. أعطيناهم كمية من الكينين تكفى لستة أشهر، لوقايتهم أو علاجهم من الملاريا. وعَدنى «آللا» أن يعود قريبا إليهم، ليطمئن على حالتهم الصحية وتطعيمهم. وفى حالة تشبه الهَوس جمعت كل ما أستطيع من معلومات. تولى الصغير جيون ترجمة الأحاديث والحوار مع آنجيو، ثم حولها آللا إلى إنجليزية ركيكة مبهمة، لكنها حافلة بكلمات بسيطة، رقيقة، نبيلة، أثارت مشاعرنا من الأعماق، ومنها:

«نحن قوم فى عزلة بعيدة. ليس لنا أى اتصال خارج عالمنا. أول غريب قابلناه هو واوى. جئنا لكى نعالَج. إننا نؤمن بالسحرة، لكن علاجهم لا ينجح فى كل الأحوال. إننا نموت تقريبا جميعا بسبب الملاريا. لا نملك القوة الكافية لكى نمشى إلى ما وراء الجبال العالية، والأنهار الكبيرة. دعانا واوى إلى المعيشة مع قبيلة أويا ـ أويا، لكننى رفضْت حتى لا نترك نهرنا الملىء

بالأسماك، وكذلك رفض قومى. إننى إنسان. كنت وحيدا فى بطن أمى. لست كالخنازير التى تلد من بطنها الكثير فى كل مرة. أخبرنى جدى أن الإنسان الأبيض لا وجود له.

الآن أعرف أنه موجود. انتهى كلامى. أريد العودة إلى غابتى. هذه نهاية الحكاية.....».

عبر التولامبى الجسر، ثم سرعان ما اختفوا فى الغابة بعد نحو عشرين دقيقة. جرف تيار النهر المندفع هذا الجسر الذى أقمناه بسرعة وبلا إحكام، لكى يعبروا إلينا ويلتقوا بنا. لم يبق فى المكان أى أثر للعبور، كأننى عشت حلما مذهلا. وما زلت أجد صعوبة فى تصديقه. ومع ذلك، فكل ما تبقى يؤكد لى أنه كان لقاء فريدا رائعا. كان اللقاء الأول فى نوعه، وربما كان الأخير على هذا النحو فى بابوازى، وإن كان البعض يؤكد أن الأيام ستثبت العكس.

دجاجلة، أم جهابذة؟

نتردد كثيرا أن نقول عنه دجال أو محتال.. بل لا يليق هذا بأى حال.. ونتردد أكثر وأكثر أن نصدق كل ما يقول، وإن كان من الخير لنا أن نسمع جيدا كل ما يقول، ونتفحص جيدا كل ما يكتب..

فهو أستاذ طبيب. وهل فى ذلك شىء عجيب؟.. وإنه عضو فى أكاديمية العلوم الروسية. آه.. يستحق إذن مرتبة فى التقدير. وقضى أكثر من ثلاثين عاما فى البحث والدراسة العملية والمعملية، وضعته فى منصب مدير معهد التدريب الطبى المختبرى فى «نوفو سيبيرسك» بسيبيريا. أحقا؟.. حينئذ فهو لا يهذى شذرا ولا ينطق هدرا، أو كما قال حكماء العرب: لا يَهْرف بما لايعرف..!. وهو عضو بارز له صوت مسموع فى المؤتمرات الدولية «المغلقة» أو محدودة العدد، القاصرة على المتخصصين فقط فى «علم» جديد، هو حقا مثير..!. وماذا يا ترى هذا «العلم» الجديد المثير؟.. قوى الإنسان غير المحسوسة، ذات القدرات الخارقة للمألوف والمعروف.

إذن.. هنا، لابد من وقفة..

اسمه: دكتور (بروفيسور) فليل كازْناتشيف. ورغم أن مجال بحوثه ودراساته الأكاديمية العملية ـ والتى تضم نخبة من كبار المفكرين والعلماء الروس ـ كانت فى توصيف الدعاية السوفيتية المعلنة قبل انهيارها وزوالها، هى نوع من الترف البورجوازى الرأسمالى الفاسد، إلا أن هذه النخبة من العلماء كانت ـ بموافقة الدولة ـ تمارس عملها وتشترك فى المؤتمرات الدولية فى أمريكا وفرنسا وألمانيا (الغربية آنذاك) وتعرض اكتشافاتها المدهشة. ويسعى الآن علماء هذه الدول

المتخصصون فى هذا المجال إلى أن يقنعوا رؤساء الدول ـ خاصة تلك التى تدعى لنفسها «ضبط» مسار العالم ـ أن يتفقوا على وضع نظام دولى للسيطرة على إنجازات اكتشافات هذا «العلم» الجديد. (وفى نفس الوقت رفع الحظر أو السرية عن المعلومات التى يستأثر بها علماء هذه الدول، نتيجة بحوثهم واكتشافاتهم، فتكون متبادلة بين زملائهم فى الدول الأخرى)، والسبب فى ضرورة وضع هذا النظام الدولى المسيطر هو، كما يقول د. كازناتشيف المتزعم لهذا المطلب: أن نتائج هذا العلم يمكن أن تستغلها استغلالا سيئا مدمرا بعض الدول، أو المنظمات، أو عصابات الإجرام، كما أنها بالتأكيد سوف تسهم ـ على نحو مهلك ـ فى الحروب القادمة. ولن تنتهى الحروب، طالما وجد ظالم ومظلوم، غالب ومغلوب، طامع ومطمع.

وكيف كان ذلك.....؟.

بداية، تلعب البيئة دورها فى حياة الناس، وتفكيرهم، وبناء شخصياتهم، وتشكيل أعمالهم، وإنجازاتهم (مع عوامل أخرى بالضرورة). إن كازناتشيف من أبناء سيبيريا. ومعروف أن لسيبيريا ظروفها البيئية، وطابعها الخاص المميز، من حيث الموقع، والطقس، والاتساع، والمستوى الاقتصادى المنخفض للسكان (رغم ثرواتها الطبيعية الهائلة)، وبعدها عن الحكومة المركزية فى العاصمة (موسكو)، وكثْرة معسكرات الاعتقال والتعذيب بها، باعتبارها منفى، التى تضم آلاف المفكرين والمعارضين والمغضوب عليهم من السلطة الحاكمة. وسيبيريا بعيدة عن مركز أكاديمية العلوم بالعاصمة. واهتمام هذه الأكاديمية ـ فى الجانب الطبى ـ ينحصر معظمه فى علاج الأمراض الشائعة فى «الاتحاد السوفيتى». وهذا أمر مطلوب مشكور لابد منه. لكن سيبيريا، التى يسكنها نحو أربعين مليونا، تواجه «أمراضها» الخاصة المزمنة، التى جعلتها سنوات الثورة الحمراء مستعصية.. فإلى جانب قسوة المناخ، توجد مشكلة التغيرات السكانية (النقل الجماعى الإجبارى للإقامة فى مناطق معينة). ومعسكرات الاعتقال فيها حركة دائمة وعدم استقرار: وافدون ومرتحلون، فلا هم يستقرون ليتكيفوا مع البيئة الجديدة ـ جسمانيا وعصبيا ـ ولا هم يُفحصون طبيا عند

مقدمهم، لمعرفة مدى استعدادهم الطبيعى لتقبل هذه البيئة. فإذا لم تكن لأجسامهم هذه القابلية، أصيبوا بأمراض وأعطاب لا تُعرف فى مناطق أخرى من روسيا.. والسلطة لا يهمها علاجهم أو شفاؤهم، فموتهم عندها أفضل..

فرضت الظروف البيئية إذن إقامة نظام محلى أو مركز إقليمى خاص بأمراض سيبيريا، وعلاج مشكلات ساكنى سيبيريا. وهذا يستدعى تكوين فريق من العلماء الأكفاء والباحثين الجادين من أبناء سيبيريا، لدراسة تلك الظروف والمشكلات من عدة جوانب: تاريخية، وبيئية، واجتماعية، وطبية... ومحاولة معالجتها. وكان فى مقدمة الذين فكروا فى ذلك، وكانت لديهم «الجرأة» على السعى لتحقيقه وتنفيذه: فليل كازْناتشيف.

ولماذا كان ذلك..؟.

إنه من أبناء سيبيريا، أبا عن جد. من مدينة «تومسك»، ومن أسرة متعلمة معلمة: فآباؤه من رجال الجامعة. ومن ناحية الأم، فهو منحدر من تلك الشعوب التى نفاها القيصر ألكسندر الأول من أواسط وجنوب روسيا إلى مناطق الحدود الشمالية النائية. فى عام ١٩٣٣ انتقلت أسرته للإقامة فى مدينة «نوفو سيبيرسك»، حيث كان من أوائل الملتحقين بمعهد الموسيقى (الكونسرفتوار) وتخصص فى الغناء الأوبرالى من طبقة «صادح» تينور. فلما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية، تطوع للخدمة العسكرية بين الفرق الحربية السيبيرية. فى عام ٤١ ـ ١٩٤٢ اشترك فى معركة ستالينجراد الضارية المشهورة، وأصيب فيها بجرح خطير فى جذعه. وبعد فترة علاج بالمستشفى، خرج ليواصل الخدمة بالجيش كمدفعجى، حتى عام ١٩٤٥. وفى ذاك العام، وكان قرب العاصمة النمساوية فيينا، أصيب فى القتال، ونقل، ثم شُفى وعُوفى، لكنه لم يستطع مواصلة الغناء الأوبرالى. ماذا يصنع؟. لقد ذاق آلام الجراح، وتجرع مرارة العجز، وسكن بيت الأمراض، وعاش شهورا طويلة بين المصابين والمعذبين والقتلى.. فاختار أن يصبح طبيبا.. التحق بكلية الطب فى مدينة نوفوسيبيرسك، وقبل أن ينتهى من دراسته الطبية، أدرك، بل وسيطرت عليه فكرة، أن العلاج والشفاء هما مجرد ظاهرة وقتية، أو مؤقتة، وأنه من الأهمية البالغة أن نفهم كيف نغير تماما أسلوبنا فى الحياة وفى المعيشة.

تدرج فى المناصب حتى أصبح أستاذا للعلاج الظبى بالكلية، وفى نفس الوقت طبيبا معالجا، وعميدا للمعهد الطبى فى نوفوسيبيرسك، وأنشأ أكاديمية الطب السيبيرية، وظل رئيسها لعشر سنوات. وفى منهجه الذى التزم به: أن الوقاية أولى بالاهتمام من العلاج. ودفعه هذا المنهج إلى الاشتغال كثيرا، بشئون البيئة، وبالطب التقليدى (المتوارث غير الأكاديمى)، وبالثقافة. وانتقل من الاهتمام بالأمور الطبية إلى الوقاية السكانية الجماعية. ومن هنا نشأت فكرة إقامة معهد التدريب الطبى المختبرى، وهو فى واقع الأمر معهد لدراسة الإنسان بشكل عام، وبالإنسان الواقع تحت أى ضغط (أو ضغوط نفسية) بشكل خاص. فى المعهد مائتا سرير فقط. فى المنهج البحثى، يتوجه الاهتمام نحو الجانب النفسى أولا، وما وراء علم النفس (كالتخاطر مثلا، أى اتصال فكر بفكر عن بعد)[1]، والإدراك فوق الحسى[2]، والأحياء (بيولوجى). وضعوا أيضا فى منهج الدراسة والبحث، الطب التقليدى الذى تتوارثه المجتمعات أو الشعوب المنغلقة على نفسها، كما فى منغوليا والتبت. وأضيف إلى المعهد مركز اتصال علمى، تتجمع فيه كل نتائج البحوث والدراسات العلمية التى تهتم بهذه الجوانب والفروع المختلفة من مصادر أخرى. إنه معهد فريد فى منهجه وأبحاثه فى روسيا (الاتحاد السوفيتى سابقا).

اهتم المعهد مثلا بأعمال العالم الروسى ألكسندر تشيجيفسكى. تدور تلك الأعمال حول إيقاعات وتأثيرات النشاط الشمسى على صحة وفيزياء الجسم البشرى: فقد بَيَّنَ هذا الرجل أن النشاط الشمسى الزائد يولد ايقاعات عنيفة أو ثورية فى خلايا بعض الأجهزة (ورغم صواب نظرته تلك، فقد أُدخل السجن بسببها).. وقد أثبتت أبحاث تلك المعهد أن النشاط الفيزيائى للجسم، حتى فى الظروف المناخية من مناطق سيبيريا، يتبع بدقة النشاط الشمسى، وكلما زاد اقتراب الإنسان من مناطق الشمال، زاد اعتماد الجسم على هذا النشاط الشمسى واشتد تأثره به. وتوصلوا إلى توضيح العلاقة الوثيقة بين ذروة النشاط الشمسى والأمراض البشرية (دورة النشاط الشمسى تبلغ ذروتها كل ١١ سنة فى المتوسط

(١) Parasychologie
(٢) Extrasensoriel

وتظهر علامتها بكثافة البقع الشمسية الداكنة التى يراها الفلكيون على سطح الشمس). واكتشفوا أن الأشخاص الذين يولدون مع ذروة النشاط الشمسى يكونون فى أفضل أحوالهم الصحية والجسمانية مع كل ذروة لنشاط الشمس. وبالعكس: أولئك الذين يولدون مع أضعف وقت للنشاط الشمسى يستمرون بعد ذلك فى أحسن حالاتهم مع كل وقت يبلغ فيه ضَعف النشاط الشمسى غايته. طبقوا هذه النتيجة على آلاف الأشخاص، فوجدوا أنها لم تتغير.

ما فائدة ذلك عمليا؟. انتهوا إلى وضع نظام لاختيار الأشخاص «المناسبين» أو الذين أجسامهم أكثر قابلية للعمل فى فترة الليل القطبى الطويلة (تمتد لبضعة شهور متواصلة) وأولئك الذين يصلحون جسمانيا وبيولوجيا للعمل على نحو افضل فى النهار القطبى الطويل (أيضا يمتد لبضعة شهور). واستعار العلماء الكنديون من هذا المعهد نتائج تلك البحوث والاختيارات ليجعلوها أساسا لمزيد من البحوث لديهم تنفعهم فى إعمار واستثمار مناطق الشمال القطبية الباردة عندهم.

يقول د. كازناتشيف: «إن هذه المناطق الشمالية ـ سواء فى روسيا، أم أوروبا أو كندا ـ مناطق قليلة السكان جدا، والمعيشة فيها صحية جدا، وتساعد على إطالة العمر. وإذا كان القرن الحادى والعشرون سيواجه مشكلة تضخم سكانى سيصل إلى عشرة أو اثنا عشر مليارا من البشر، فإن أحد حلول هذه المشكلة ببساطة هو: تهجير ملايين وملايين (ممن تصلح أجسامهم للتكيف مع ظروف تلك البيئة) وإقامتهم هناك فى الشمال، وهى مناطق غنية بثرواتها الطبيعية الوفيرة من كل شىء (حتى البترول والذهب والماس وكل المعادن). وهذا حل عملى أفضل من ذلك الذى يقترحه عالم الفلك الفيزيائى الأمريكى «برايان أولبرى» من إقامة مستعمرات بشرية فى الفضاء الخارجى للأرض، ويتخيل معيشة عدة ملايين فوق محطات فضائية صناعية.. وأنا لا أوافق مطلقا على تلك الخرافة أو الوهم، وبين أيدينا على الأرض، مساحات شاسعة، فيها الماء، والأوكسجين، والحياة النباتية والحيوانية. ورغم ظروفها المناخية، فهى تتيح إطارا معيشيا رائعا، ومن يسكنها ينعم بحياة هادئة جيدة، وعمرا أطول»..

ولكن، هل يتاح ذلك يا دكتور كازناتشيف لسكان المناطق الحارة، مثل الأفارقة والهنود؟.. يجيب:

- بالتأكيد. لو أن الأفارقة والهنود عاشوا فى تلك المناطق، فسوف يرون أن متوسط أعمارهم زاد عشر سنوات أو أكثر. يجب أن يعرف الناس جميعا أن هذه المناطق الشمالية هى الأفضل على الإطلاق للمعيشة الصحية المريحة والنشيطة والممتدة. إن مجرد الإقامة بها لمدة سنتين أو ثلاث متصلة، يحقق كل هذه النتائج، ولقد درسنا - عمليا - أسلوب (ميكانيزم) التكيف مع الظروف البيئية بتلك المناطق، ووجدنا أنها تناسب أجسام بعض الناس ولا تناسب بعضا آخر. والسبب: علاقة مباشرة بين نظام الجهاز العصبى فى الجسم وبين الجينات (الوِرْثات).

«ودرسنا أيضا حالتين أو نمطين بشريين: «الجمَّازون»[1] أولئك الذين يتحملون المعيشة تحت ضغط ظروف قاسية، ولكن لفترة محدودة. والنمط الثانى: «العداؤون إلى الأعماق» أولئك الذين يتحملون لفترة طويلة ممتدة الضغوط المتوسطة. وبتركيز الدراسة البحثية على سكان المناطق الشمالية وجدنا أنهم جميعا من النمط الثانى. وأما أولئك القادمين (الغرباء) للعمل بمناطق الشمال، فأكثرهم «عدّاؤون إلى الأعماق»، وقليل منهم «جمازون» لا يستطيعون المعيشة بها أكثر من ثلاث سنوات»..

اكتشفوا أيضا أن الأمراض التى تصيب هؤلاء، تختلف عادة عن تلك التى تصيب الآخرين. وبالتالى، فالنمط الأول يحتاج فى الوقاية إلى أساليب تختلف عن احتياجات النمط الثانى. وقد لقيت نتائجهم البحثية قبولا فى كل المناطق الشمالية فى الدول الإسكندنافية وكندا وألاسكا.

ثم.. اكتشاف آخر مثير، وطريف..

هل الخلية الحية.. تُبصر؟.. نعم.. ليس بالضرورة إبصارا برؤية، مثل العين ومركز الإبصار بالمخ. ولكنها رؤية من نوع ما، أو إبصار أكيد بطريقة

(١) الجَمْر (بفتح الجيم وسكون الميم) لغة: الجرى بسرعة كبيرة لفترة قصيرة.

مازالت لغزا مجهولا . . ثبت هذا من آلاف التجارب؛ وكلها انتهت إلى نفس النتيجة: الخلية الحية لها رؤية بصرية، وهذه الرؤية لها تأثيرها المناظر (أى تأثيرها وتأثرها مع الخلايا الحية الأخرى، وليس فى حالة عزلها منفردة). . وخرجوا من ذلك بافتراض علمى تدعمه حقائق ملموسة، وهو: خارج الخلايا الحية توجد «حياة كونية»، حياة فى «مجال» أو «حقل»، كما أطلقوا عليه هذا المصطلح.

بدأت الاختبارات على الخلايا الحية عام ١٩٦٥ فى أوان (برطمانات)، ثم تتابعت آلاف المرات، وأثبتت ظاهرة جوهرية، وهى الاتصال والعمل (أو الفعل الإيجابى) من بُعد. إنها تفتح آفاقا جديدة تماما لفهم تبادل المعلومات، وعليها ترتكز علميا الأعمال والبحوث المتعلقة بالتأثيرات اللاحسية (ما وراء الحواس) من مسافات بعيدة.

التجربة فى الأساس بسيطة للغاية: فى وعاءين زجاجيين متماثلين تماما متجاورين، مغلقين بإحكام، وضعوا مزرعة خلايا متطابقة فى كلا الوعائين. وليس بينهما أى اتصال أحيائى (بيولوجى) أو كيميائى أو فيزيائى، وإنما اتصال «بصرى» فقط: أى يرى كل منهما الآخر، ثم أدخلوا فى الوعاء الأول عامل مرضى، أى فيروس من نوع معين، فماتت الخلايا فى هذا الوعاء بعد مرضها. ولكن، وهذا هو العجيب المدهش، أصيبت الخلايا ـ المتطابقة مع خلايا الوعاء الأول، والتى لم يلامسها أى شىء أو فيروس ـ أصيبت بنفس أعراض المرض، ثم ماتت، علما بأن الخلايا فى الوعاء الثانى كانت معزولة بالداخل، والوعاء من الكوارتز. وكرروا التجربة مع ثلاثة أوعية وأربعة، وعشرة بنفس الأسلوب، وكلها منعزلة بعضها عن بعض. وفى كل مرة تموت الخلايا بالتتابع، متأثرة بمرض وموت خلايا الوعاء الأول.

ثم صنعوا جهازا خاصا يضم خمسين بالونا بكل منها مزرعة خلايا حية، وأعادوا التجربة، فانتقلت آثار العدوى إلى كل من البالونات المعزولة المتباعدة؛ وماتت بالتتابع بعد ظهور أعراض نفس المرض عليها جميعها. لابد إذن من وجود «اتصال» ما، كما لو كانت تنظر بعضها إلى بعض. ويمكن تكرار ذلك

إلى ما لا نهاية. ولا يفسر ذلك إلا وجود حقل أو مجال أحيائى (بيولوجى) حول الخلايا..

الأغرب من ذلك.....

جربوا تأثير الإشعاع النشط، وعلى نفس النمط: فتأثرت مزرعة الخلايا الحية فى الوعاء الأول بأعراض مرض الإشعاع، ثم ماتت. وتبعتها خلايا الوعاء الثانى ـ المعزولة والبعيدة عن الأول، والتى لم تتعرض للإشعاع ـ ثم خلايا الوعاء الثالث، وهكذا.. ولما صوروا جميع هذه الخلايا الميتة، لم يُظهر المجهر الالكترونى أى فرق فى صور خلايا الوعاء الذى تعرض للإشعاع، وصور خلايا الأوعية الأخرى التى ماتت بالتبعية.

فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٥ استخدموا فى آلاف التجارب أنواعا مختلفة من السموم، والإشعاعات القاتلة، والفيروسات (فى نحو ٢٠ ألف تجربة)، ودائما نفس النتيجة!.

ولكن... من أين جاءت الفكرة؟ هل هو إلهام؟ خاطر عابر؟ موقف عارض؟.. لا هذا ولا ذاك.. وإنما ـ وهذا مدهش ـ نتيجة «أزمة» أو «مشكلة» افتعلها بعض «المهمين» فى مراكز السلطة.. وكما قيل قديما: (رب ضارة نافعة..). يقول كازناتشيف موضحا:

«كنت أبحث ـ كطبيب ـ تأثير المياه المشعة فى منطقة «التاى» جنوب سيبيريا وفيها يكثر علاج الناس. وهى مياه بها غاز مشع بكمية ضئيلة جدا من التركيز الإشعاعى.. وكان من رأينا أن هذه المياه لها تأثير مفيد فى بعض الحالات المَرَضية، بينما بعض كبار الموظفين بوزارة الصحة يؤكدون أنه ليس لها أى أثر علاجى نافع لإن طاقة الإشعاع ضعيفة للغاية. وفى الواقع، كان هؤلاء يبغون إغلاق مركزنا العلاجى، فضمائر البعض لا تسلم من الحقد. ارتكز تفكيرنا على أن تلك المياه المشعة يمكن أن تعمل وتؤثر وفق أشعة «جورفتش». فقد اكتشف هذا العالم أن الخلية الحية عند الانقسام الوراثى تبُث إشعاعا فوق بنفسجى. وهذا الإشعاع عندما يطرق خلية حية أخرى، فإنه يساعدها على

الانقسام. ولذا سميت هذه الأشعة: «أشعة الانقسام الورْثى»[1]. استخدمنا إذن هذا الماء المشع وراقبنا تأثيره على انقسام الخلايا الحية، وهذا ما أدى بنا إلى إجراء سلسلة التجارب على أوعية مزارع الخلايا وتأثيرها المباشر على بعضها البعض رغم بعد المسافة فيما بينها وعزلها إلا من حيث الرؤية. كانت المفاجأة المدهشة فى استخدامنا للمياه المشعة، أننا لاحظنا أن عددا كبيرا من الخلايا المجاورة لتلك التى تأثرت بالماء المشع، حدث بها الانقسام بدون اتصالها بالماء المشع.

«وخرجنا بهذه النتيجة المهمة الجديدة: إن الإعلام ـ أو تبادل المعلومات ـ داخل الأجسام الحية يتْبع نظاما أو منهجا يختلف تماما عن نظام الإعلام وتبادل المعلومات فى الأجهزة غير الحية (كما فى أنظمة الاتصال المألوفة).. ولما كنا نذكر عن العالم لافوازييه، وتجاربه على المادة الحية، أن بعض العناصر يمكن أن تتحول إلى عناصر أخرى، فقد درسنا بدقة تلك العمليات التحويلية فى المادة الحية. ولم نبدأ بالبحث فى قابلية التحول من مستوى عنصر آخر، (كما حاول ذلك علماء فرنسيون) ولكن تركزت بحوثنا على النظائر المشعة الثابتة أو المستقرة، مثل الكربون ١٢، والكربون ١٣، والكبريت. وتبين لنا أنه فى مسار الحياة، أن جزيْئات الكبريت الثقيلة، وكذلك الكربون، تتناقص فى الأنسجة (عند المصابين بأمراض مزمنة وبأمراض الشيخوخة).

لم نستطع، بما لدينا من معرفة وأساليب كيمياحيوية وجينيتية أن نحتجز الكربون ١٢ و١٣ فى جسم الإنسان: كان لابد من إيجاد مجال أو حقل. لذا فكرنا وقدرنا أنه يرجّح وجود اندماج بيولوجى حرارى نووى بارد، وهذه العملية هى أساس تحول العناصر. لم نتوقف داخل نطاق البحث المختبرى وحسب، وإنما تجاوزنا ذلك إلى آفاق أخرى، انطلاقا من يقيننا بأن هذا الاندماج الحرارى النووى البارد ذاته يشكل جوهر أو أساس حياة الحقول (أو المجالات). وعندما وضعنا خلايا حية داخل غرف (هى أجهزة) معزولة مغناطيسيا، بدأ التكوين البنائى لتلك الحقول فى الاختفاء، ثم ماتت البروتينات فى الخلايا..»

إن الأستاذ د. كازناتشيف هو الذى ابتكر غرف (أجهزة) العزل المغناطيسى.

---

(١) rayons mitogénétiques ـ وهو اصطلاح مركب مشتق أوله من mitose بمعنى : انقسام.

ومن خلال هذا الابتكار الذى يكاد يحجب تماما (أو تقريبا) تأثير الحقل المغناطيسى للأرض نسأل: هل لذلك من فائدة؟ . . . .

يقول:

«ابتكرنا تلك الغرف لإجراء تجارب نستطيع من خلالها فصل هذين الشكلين أو هاتين الصيغتين للحياة. وقد ثبت لدينا بلا أدنى شك، أننا إذا وضعنا خلايا حية فى واحدة من تلك الغرف المعزولة عن مغناطيسية الأرض، فإن الجيل الرابع والخامس أو السادس من تلك الخلايا تختفى منه خصائص المغناطيسية الأرضية تلقائيا، وإن كانت تلك الأجيال بعيدة عن تلك الغرف.

«تلك الظواهر المتعلقة بالتأثير عن بعد تدعم وتوضح نظرية الإدراك فوق الحسى. إنها تبين أن حقيقة طبيعة الأجهزة الحية تظهر فى تأثيرها المناظر المتبادل فى تلك الأجهزة، وأن الزمان والمكان ليس هما فقط اللذان يحكمان أو يتحكمان فى الكون. هناك عامل ثالث وأساسى هو: الإعلام أو العلم أو مستوى المعلومات. ومن المحتمل تماما أن أجسام الكائنات والأجهزة الحية لديها حساسية نحو حقول أو مجالات، ربما تكون فى جوهرها الأساسى إشعاعات موجِّهة أو مرشدة» . .

لماذا اقتصرت تلك التجارب المثيرة والمستفيضة ـ ولسنوات طويلة ـ على الخلايا الحية ولم تُجْرَ على حيوانات مثلا أو إنسان؟.

يجيبنا د. كازناتشيف قائلا:

«جربنا بالفعل. لكن من الميسور ملاحظة الآثار والنتائج على الخلايا إلى الجيل العاشر أو الثانى عشر منها. ولكن ليس من المتاح لنا دراسة ذلك على الانسان فى مثل هذه الظروف إلاَّ فى دقائق لا يمكن أن تتجاوز العشرين أو الثلاثين، لأنه بعد ذلك الوقت تحدث تأثيرات خطيرة على بنية المخ: فتختفى الفروق تماما بين فَصَّى المخ، ولا ندرى حتى الآن لماذا يحدث ذلك. وهى بالنسبة للإنسان محفوفة بالمخاطر الشديدة إذا أُجريت على الارض، بدلا من الفضاء الكونى (كما يحدث لرواد الفضاء). لماذا؟. لأن المادة الحية موجودة على الأرض منذ أربعة بلايين سنة، ولم تعزل قط طوال هذا الزمن عن الحقول

المغناطيسية، فإذا وُضع الكائن الحى فى داخل مثل هذه الأجهزة (المعزولة عن المغناطيسية الارضية) تكون هذه قفزة مفاجئة هائلة نحو المجهول.

«إن الخلايا التى استُخدمت فى التجارب هلكت جميعها بعد الجيل العاشر من انقساماتها. وكما ذكرتُ آنفا، فإن بِنية المجال أو بنية الحقل الأحيائى (البيولوجى) هى التى تموت أولا وليس البروتينات. وبناء على ذلك، فمن رأينا أنه فى حالات الأمراض الخطيرة يحدث نفس الشىء تماما: تمرض أولا بنية المجالات الأحيائية، ثم تموت أولا وتتبعها الخلايا والأجهزة الحية. ولقد حاولنا أن نثبت ذلك بوضْع حيوانات حية فى الغرف المعزولة مغناطيسيا ثم باشرنا علاقة بعض الأمراض التى بها. وفى أثناء فترة وجودها فى العزل المغناطيسى تعرضت لتعديلات جسمانية على جانب كبير من الأهمية. من المدهش أنها أصبحت أكثر ذكاء. أطفال مرضى بسرطان الدم (لوكيميا) خضعوا للتجربة فى تلك الغرف المعزولة لدقائق محدودة ،تفجرت فيهم طاقات ذهنية مفاجئة وقدرات واضحة. مثلا: أولئك الذين لم يحسنوا الرسم، تحولوا إلى رسامين مبدعين. التفكير المنطقى ظهر واضحا. وكما أن هذه الغرف المعزولة أحدثت تعديلات واضحة، فإنها أيضا أظهرت إسهامًا فعالاً فى الشفاء.

«إنه مجال جديد فى البحث والدراسة، ربما كان أكثر جدوى وأقل تكلفة من بحوث وتجارب الفضاء. إن الفضاء ميدان لمغامرة من أجل التكنولوجيا، وهذا ميدان لمغامرة من أجل الحياة»..

إن د. كازناتشيف فى نظرته العلمية الفلسفية الإنسانية يدفعنا إلى الجرأة على السؤال: وهل ـ بصراحة ـ حاولت أنت أن تدخل هذه التجربة، وأن «تغامر» وتجرب بنفسك؟، فيقول:

«بالتأكيد.. إذ كيف أقاوم الرغبة فى خوض تلك التجربة بنفسى؟. ولقد شعرت حقا بتغيرات فى داخلى. مثلا: عندما بدأت أكتب بعدها، تواردتْ على ذهنى صور جديدة تماما، وأفكار ما كانت تخطر أبدا ببالى من قبل. وأصدقائى

الذى تعرضوا للتجربة (فى الغرف المعزولة مغناطيسيا) حدثت لهم نتائج مشابهة. وربما كان هذا أسلوب (ميكانيزم) فريد فى نوعه خاص بمعالجة الأمراض النفسية مستقبلا إذا تحسن وتطور. ولماذا لا يستفاد منه فى أمراض مزعجة مثل السرطان؟. إنه أفق جديد مازال غامضا. وخطواتنا فى اتجاهه مازالت فى البداية رغم اختباراتنا على الخلايا والحيوانات والجينات لفترات زمنية محدودة للغاية. إن نسبة تركيز الحقل (المجال) المغناطيسى فى الغرف التى ابتكرناها قبل أى مكان آخر فى العالم، تبلغ واحد على عشرين ألف من قوة المغناطيسية الأرضية الطبيعية. ولدينا غرف تضعف المغناطيسية فيها إلى أقل من خمسين ومائة ألف نستخدمها فى تجارب أخرى لا يدخل فيها الإنسان على الإطلاق. وللمقارنة: فإن الكهرومغناطيسية فى مجال القمر اضعفِ ألف مرة فقط عن تلك التى فى مجال الأرض. وفى الاختبارات الأمريكية لتدريب رواد الفضاء الذين نزلوا على سطح القمر، صُممت غرفة تبلغ قوة المغناطيسية فيها مثيلتها على سطح القمر. ومن خلال تجارب تدريب الرواد، لاحظوا شيئا عجبا: اكتشفوا أن الخاضعين للتجربة فى هذه الغرفة أصيبوا بخلل فى الإحساس بالزمن أو إدراك الوقت، وأن نمو النبات فيها اختلف عن الأسلوب المعتاد فى البيئة الطبيعية العادية، إلا أنها اثبتت تحمل الإنسان لجاذبية القمر. أما أبعد من ذلك فى الفضاء الكونى الرحيب، فلن يتحمل الإنسان المخاطرة لأن المجال الإحيائى عنده سيخبو ويموت. وهنا يجب أن نشير إلى أمر يجب أن يوضع فى الحسبان دائما: المحافظة على الإنسان، فهو أهم وأغلى ما فى المجتمع.. أى مجتمع وليس الأشياء، ولا الإنتاج، ولا التكنولوجيا».

منذ سنوات، ينفذ د. كازناتشيف ومساعدوه برنامجا تجريبيا للاتصال عن طريق الإدراك فوق الحسى، أى الاتصال المباشر بين أشخاص فى مدن أو مواقع متباعدة، بدون استخدام الحواس الطبيعية أو أجهزة صناعية. واختاروا عشرة مدن على امتداد روسيا لهذه الاختبارات العلمية المعملية، وذلك كمرحلة أولى، ثم تطور إلى مراحل أخرى للاتصال ـ بنفس الأسلوب ـ بين أشخاص فى دول متباعدة، ثم عبر العالم كله. هذا النوع من الاتصال ـ ويسمى التخاطر ـ يتم فى التجربة على النحو التالى:

يعطَى المشترك فى التجربة رسما أو صورة أو شيئا معينا، وعليه أن يتأمله جيدا بتركيز ثم «يرسل» بالتخاطر (أى انتقال تصوره وفكره) إلى شخص آخر فى مدينة بعيدة مشترك معه فى التجربة، فيتلقى الأخير «الرسالة» ويرسم على لوحة أمامه الصورة أو الرسم أو الشكل الذى تلقاه ذهنه. وتسجَّل هذه الاختبارات بأجهزة الفيديو. وقد نجحت التجارب فى بعض الحالات وفشلت فى أخرى، وأثبتت أن أشخاصا عاديين لديهم هذه المقدرة أكثر من غيرهم، كما تؤكد أن طاقات وقدرات وذكاء الإنسان تفوق إنجازات التكنولوجيا والكمبيوتر وحتى فى الاتصال عن بعد. ونجحت بعض هذه التجارب من داخل الغرف المعزولة مغناطيسيا، وهذا يبرهن على أن طبيعة الاتصال عن بعد (كالتخاطر) لا ترتكز على أساس مغناطيسى.

وتستمر التجربة على نطاق أوسع بين معهد د. كازناتشيف ومراكز أو معاهد مَعْنية بهذا الأمر فى الولايات المتحدة، وبولندا، والتشيك وألمانيا، وفرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، وكندا..... وضعا فى الاعتبار ظروف الأحوال الجوية المناسبة، وأن يكون النشاط الشمسى ضعيفا. والهدف: معرفة إمكانية الاستفادة من هذا الأسلوب فى الاتصال عن بعد بين الإنسان والإنسان، وبين الخلايا والخلايا، والانتفاع بالإدراك فوق الحسى فى الشفاء من المرض، وتحديد مناطق نشوء المرض داخل أجهزة الجسم، وفى علاج الأمراض النفسية، وفى علوم الفضاء والفلك.. برامج العمل البحثى فى هذه المجالات كثيرة ومتنوعة، بعضها يمضى ببطء مقصود، وبعضها بتسارع مرصود، ويشترك فيها أساتذة ومتخصصون من أبرز الكفاءات وأعلى المستويات. من المدهش معرفة أن الإنسان مرتبط وعلى اتصال مباشر بالخلايا: «فهو يستطيع أن يوجه ويؤثر فى نموها.. فى بعض التجارب استطعنا من بُعد (بالتخاطر) وبدون استخدام اجهزة صناعية، استطعنا زيادة وإبطاء سرعة عمل كومبيوتر»....

إن كان حقا ما يقال فى هذا الشأن، فإن النتائج على المدى البعيد تفتح بابين متناقضين: باب من الأمل، وآخر من الخوف. الأمل فى الانتفاع بنتائج تلك البحوث والتجريب فى مجالات إنسانية عديدة، من أهمها الوقاية الصحية

والشفاء من الأمراض الخطيرة جسمية أو نفسية، وتحسين قدرات الإنسان وحسن استثمارها. والخوف من استغلال نفس النتائج فى مجالات الشر والأشرار: كالعصابات الدولية، والجريمة المنظمة، والحروب، والتجسس، والإرهاب السياسى.. خاصة أن المعاهد والمراكز التى تبحث فى هذه الدراسات لا يخضع معظمها للسيطرة الحكومية. وإن د. كازناتشيف نفسه يقول:

«إننا مازلنا فى أول الطريق. وكل عملة لها وجهان. ولكل ميزان كفتان. والمتناقضات كثيرة فى الإنسان.. وإذا كنا قد نجحنا فى التأثير من بعيد على عمل كومبيوتر فقط باستخدام الإرادة الذاتية للإنسان والذكاء والاتصال المباشر عن طريق الفكر (أو التخيل)، فإنه إذا وُضعت هذه القدرات البشرية التى توصلنا إليها، فى أيدى المحاربين وفى أيدى محبى العدوان، فإننا سنتعرض لاعتداءات جديدة شديدة القسوة والعنف. إنها تبلغ من القدرة والسيطرة الحد الذى تستطيع فيه إصابة تفكير وإرادة جماعات من الناس بالشلل، وتحويلهم إلى حالة من الاستسلام والعبودية المطيعة الوديعة. والأخطر من ذلك: أن هذه الاكتشافات الجديدة، إذا ما طُورت تكنولوجيا، فإن أسرار ونظم ومخزون معلومات جهاز مخابرات دولة ما أو خططها وأنظمتها الحربية والدفاعية يمكن سرقتها من بُعد، ومن الممكن أيضا بنفس الأسلوب (ودائما من بعيد) انتزاع الروح القتالية لدى جيش، أو مجموعة جيوش، وتحويل مجموعة من الشعوب إلى الميل نحو السلبية والاسترخاء الشديد....».

من أجل ذلك، ينادى بشدة د. كازناتشيف بالعلانية، بعدم سرية هذه البحوث والتجارب ونتائجها لتكون معروفة متبادلة على الأقل بين المعاهد والمراكز المعنية بها وبين الدول التى توجد فيها، لأن السرية ـ فى رأيه ـ تعنى الإعداد لاستخدامها فيما يضر ويهلك، قبل أن يفيد وينفع.

... ...

إنه حقا أمر مدهش، مثير، مقلق، ومحير.. وأحيانا لا نجد حرجا فى أن نقول لأنفسنا: رُب علم كان الجهل به أجْدَى.. وأفضل..

هنا محطة إذاعة المجانين!

هل نذكر الدعابة الكاريكاتورية القديمة عن إخواننا نزلاء مستشفى الأمراض العقلية والعصبية؟. تفكروا وتدبروا، ثم انتهى بهم الرأى إلى الآتى: رفعوا اللافتة المثبتة على باب المدخل بالمصحة، المكتوب عليها« احذر!.. أمراض عقلية»، ثم ثبتوها خلف الباب، بحيث يراها الخارج من المصحة!!.

اليوم، فكروا وتدبروا وانتهى بهم الرأى إلى تنفيذ مشروع طريف: إنشاء محطة إذاعة خاصة بهم، تبث إرسالها على نطاق واسع، وأصبح لها جمهور دائم من المستمعين يقرب من سبعة ملايين حسب إحصاء أُجرى فى ١٢ إبريل ١٩٩٧! إنه نجاح كبير بلا شك، وأسلوب فى العلاج والتثقيف والترويح يستحق الدراسة والتأمل. اسمها «راديو كوليفاتا» من مستشفى الأمراض النفسية فى بوينوس أيرس عاصمة الأرجنتين. المستمعون شغوفون بالاستماع إليها. والدليل: أن برامجها تحملها موجة بعيدة المدى، وتنقلها لإعادة البث ثلاثون محطة إذاعة تغطى كل الأرجنتيين وتصل إلى «أرض النيران» بالطرف الجنوبى للأمريكتين، وإلى القارة القطبية الجنوبية، حيث مراكز البحوث القطبية. وتذاع برامجها أيضا ـ طوال الأسبوع على موجة التردد المعدَّل (FM). وفى تعبير لمدير إحدى المحطات الإذاعية المحلية التى تعيد بث برامج «كوليفاتا» توضيح الدافع إلى سماعها ومتابعتها، قال: «ليس الدافع عاطفى فقط، كالشفقة أو المشاركة الوجدانية لهؤلاء المرضى المساكين، وإنما أيضا لأن المرء يصغى أحيانا إلى واقع حقيقى صادق، إلى الحقيقة «الخام»، بدون تزيين أو تزييف أو تحسين (رتوش)..».

كانت البداية عام ١٩٩١: «ألفريدو أوليفيرا» طالب يدرس الطب النفسى بمستشفى «بوردا» للصحة النفسية بالعاصمة الأرجنتينية. من خلال معايشته للمرضى النزلاء بالمستشفى أدرك متاعب وآثار العزلة القاسية المفروضة عليهم. من هنا جاءته فكرة إنشاء محطة إذاعة صغيرة تكون «نافذة تنفتح بهم على العالم الخارجى، وتصل سكان العالم الخارجى بهم، أيا كان ما يقال أو يذاع من خلال الميكروفون».. يكفى فقط كسر حدة تلك العزلة، وزحزحة ـ إن لم تكن إزالة ـ حاجز الحذر والرعب الذى يقيمه الآخرون بينهم وبين هؤلاء المرضى «الغريبى الأطوار»، وهم فى البداية والنهاية أفراد من الناس.. من البشر.. من سكان العالم الواحد.

كان متهيبا من تنفيذ الفكرة فى البداية: أن يسلّم الميكروفون لأمثال هؤلاء. لكنه كان واثقا أنه عمل يجمع بين التسلية والعلاج. بين الإمتاع والاستمتاع، وبين التآلف والإشباع. يقول: «.. وأردت أيضا أن أوضح للمواطنين الأرجنتينيين أن المختلين عقليا ليسوا جميعا ـ ودائما ـ أشخاصا خطرين مضجِرين مفزِعين، لكن غالبيتهم كثيرا ما يكونون مجرد أشخاص مضطربين خائفين. وهم كذلك قادرون على الحديث بذكاء، وببساطة وتلقائية عن مشكلاتهم العامة والتى يشتركون فيها جميعا».

بعد خمس سنوات من بداية تنفيذ الفكرة الجريئة الطريفة، كان النجاح مدهشا: حصلت «كاليفاتا» فى أبريل ١٩٩٦ على الجائزة الفاخرة الكبرى لأحسن برامج إذاعية على مستوى الدولة كلها، وظهرت كفاءات لفتت إليها الأسماع والأنظار.. «أنجل فيللا» الذى تجاوز الستين من العمر، ونزيل المستشفى منذ سبعة وثلاثين سنة، والمسئول عن «نادى الموسيقى بمستشفى البوردا» يتحدث عن الموسيقى، ويؤلفها ويلحنها ـ خاصة التانجو ـ بطلاقة ومهارة وإبداع، وإن كان ذلك فى طابع حزين مؤثر. لقد حقق ـ باسم زملائه النزلاء ـ نجاحا وتفوقا أسعده وأمتَعَهم على نحو لم يعهدوه مطلقا من قبل. وقد حصل على تصريح مؤقت للخروج من المصحة لإجراء حوارات مع

الموسيقيين الكبار، حتى إن أحد هؤلاء المشاهير ـ ويدعى «هوراشيو فرّير» ألّف لحنا من نوع التانجو اختار له عنوانا: «أغنية عاطفية لمجنون»[1] ولما سئل هوراشيو: هل تأليف تانجو منسوب إلى مختل عقليا يحقق نجاحا؟. أجاب: «لست أدرى.. ولكن ابحثو فى الأدب العالمى، وانظروا كم من الأعمال المشهورة كتبها مؤلفون مختلو العقل..»!.

و «جراسيس».. فيلسوف المصحة، أو المستشفى المنعزل: نحيف فارع الطول، بلا أسنان تقريبا، يرتدى بدلة واسعة جدا لا تناسب حجم جسمه، يحمل كمية كبيرة من الأوراق مدون بها كتاباته الحكيمة يقول صراحة: «أعرف أننى مجنون، معقّد، مصاب بالشيزوفرنيا (الانفصام العقلى أى البعد عن الحقيقة وعدم الترابط بين العقل والانفعالات)، والذُّهان (الاستغراق فى الأوهام والشك الشديد، أو الشعور بالاضطهاد، أو بجنون العظمة)، لكننى لست وغْدا.» وهو صادق فيما يقول. له برنامج ثابت بعنوان: مأثورات جراسيس الحكيمة!. أمام الميكروفون، يقول: «إن الجنون ليس مطلقا التفكير الصائب الراشد الحصيف، لكنه قد يكون تفكيرا منطقيا. وكذلك بعض الأطباء المعالجين. تمامًا مثلما أن بعض رجال الدين ليسوا قديسين. وهل يمتنع أن يصاب أحد أطباء النفس بالاضطراب أو الاكتئاب أو الجنون؟». وبعيدا عن الميكروفون، أثناء إذاعة أغنية بالبرنامج، يقول هامسا بلهجة جادة لصحافى زائر، إنه «امبراطور» المصابين بالذُّهان. ثم يضيف: «ينتابنى الفزع عند حضور نزيل جديد بالمصحة، لعله يكون أشد ذُهانا منّى، فربما ينتزع منى هذا اللقب»!.

إن جراسيس واحد من «نجوم» إذاعة راديو كوليفاتا المستغرقين فى عزلتهم بهذا المأوى المنكود. وهو يسجل برنامجه فى حديقة المستشفى على مدى ثلاث ساعات، ويستقبله داخل المصحة نحو ألف ومائتى مريض بعد عمل المونتاج، وتقصير مدته.

---

(١) Balada parun loco.

الطبيب الشاب الفريدو أوليفيرا (رافعا يده إلى اليمين) أثناء إذاعة راديو كوليفاتا

فى تعليق لأحد المستمعين بالعاصمة الأرجنتينية قال: «إن برامج راديو كوليفاتا فى تقديرى أحسن برامج الإذاعات الأرجنتينية.. ربما لأننا جميعا هنا مصابون بقدْر ما من الجنون»!.

وهو تعليق ذو مغزى. كيف؟.

كانت الأرجنتين إلى عهد قريب تتمتع بثراء، وطيب عيش واستقرار، حتى إن بعض الكتاب والمحللين تعجب قائلا: «إن أحوال الأرجنتين من أكبر ألغاز عصرنا»[1]، ثم ظهر أن «اللغز» يستتر فى أدمغة الأرجنتيين أنفسهم.. كيف؟ ولماذا؟.. أصيبت الأرجنتين «بفيروس» الانقلابات العسكرية، والشعارات البراقة الجوفاء، وحكم الديكتاتورية السالبة الناهبة المستندة إلى قوة وبطش الشرطة والجيش بما لم تشهده البلاد ولا أمريكا الجنوبية من قبل، حتى إن المعارضين والمستنيرين والناصحين كانوا يُلقَوْن أحياء من الطائرات إلى البحر أو الصحارى أو أعالى الجبال!، وراح ضحية هذه الوحشية الظالمة مئات..

(١) ف. ينبول فى كتابه «عودة إيفا بيرون The Return of Eva Peron»

وآلاف! فكان «الاختفاء» المفاجئ ظاهرة مؤلمة مفزعة تعرفها البيوت والأسر. ثم كانت حرب جزر «فوكلاند» عام ١٩٨٢ بين الأرجنتين المطالبة بحقها فى امتلاك الجزر وبريطانيا المدعية لنفسها هذا الحق (وفازت بريطانيا باستعمار الجزر بتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية). ويضاف إلى تلك المآسى المتلاحقة كثرة الهجرة المتعددة الجوانب: هجرة النازحين من القرى والريف والجبال إلى العاصمة والمدن، وما يترتب على ذلك من تكدس وتعطل هنا، ودمار ونضوب هناك، وأيضا هجرة القادمين من مناطق ودول فقيرة أو مقهورة مجاورة، فلا عجب إذن ـ كما قيل ـ «أن يكون فى دماغ كل أرجنتينى ولو ذرَّة من جنون. الناس هنا ـ عدا المتسلطين والمنتفعين والنهابين ـ يعيشونَ على هامش الحياة. ليسوا أوروبيين ولا أمريكيين، وإنما هامشيين. وانظر إلى مارادونا (لاعب كرة القدم المشهور) إنه فى مسلكه وتصرفاته كالمجنون، وغيره كثيرون من المشاهير»!.

ولا غرابة فى أن «العقلاء» يؤثرون الانطواء، وأن العاصمة ـ بوينوس أيْرس ـ تختلط فيها الآهات بالضحكات، البؤس بالأُنْس، اليأس بالكأس، الرِّجْس بالجنس. وهى العاصمة التى توزع فى شوارعها وفى متاجرها ومطاعمها نشرات دعائية عن «علاج نفسى متكامل»، أو عن أماكن التجمعات «من أجل حياة أفضل للتخلص من الكآبة والهموم»!.

فى ميدان «مايو» بالعاصمة، حوَّلت «ديانا كوردون» الطبيبة النفسية عيادتها إلى ورشة عمل، بالمشاركة مع الأمهات، لعلاج ورعاية عدد من أبناء نحو خمسة عشر ألفا من الآباء الذين قُتلوا أو اختفوا إلى الأبد أثناء فترة الحكم العسكرى بين عامى ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢. برنامج العمل الجماعى يشمل مجالين: الآثار النفسية للقهر السياسى، والقصاص القانونى العادل من أولئك الذين أفلتوا من العقاب. وتؤكد ديانا أن المجتمع الأرجنتينى مريض بآثار ماضيه القريب. ورواسب هذا الماضى لا تتلاشى مع مرور الزمن، بل على العكس تتزايد. تقول: «وقد لاحظنا حالات انتكاس كثيرة بعد العلاج، وأصحابها

يلحُّون فى طلب المساعدة. وترْك الجلادين ينعمون بالحرية والثراء يزيد الموقف سوءا. ونتج عن ذلك أمراض اجتماعية، من أعراضها: العنف التلقائى السائد، الذى لم يكن معهودا من قبل».

ويضيف الطبيب النفسى الشاب ـ صاحب فكرة راديو كوليفاتا ـ الفريدو أوليفيرا: «إن الجنون مرآة تعكس جانبا من حياة المجتمع». ثم ينصرف إلى «ستوديو» التسجيل بحديقة المستشفى، لإعداد برنامجه الإذاعى. وهو إذ يجيد الغناء والعزف، يسجل بصوته أغنية: «لا تبكى من أجْلى.. يا أرجنتين»!.

التليفزيون الياباني يصور العفاريت

الأرواح.. الأشباح.. الجن.. العفاريت.. الأسياد.. الخدام.. الأطياف.. الأموات.. القرين.. العين.. وأيضا: المسكون، والمجنون، والمهووس، والملبوس، والموسوس..

إنه عالم في الخفاء غير ملموس، ولكنه - رغم التطور ومسيرة قرون من العلم والتنوير والحضارات والإنجازات - مازال يشغل خيال وأذهان كثير من الناس، في كل الدول شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فقيرها وغنيها، بل إن أصحاب أسماء لامعة، وشخصيات قيادية شهيرة، في مدن وعواصم دول كبرى، تلجأ إلى الذين يزعمون لأنفسهم دراية وخبرة في هذا المجال،...

وهذا هو التليفزيون الياباني في طوكيو، (NTV) ينظم جولة تسجيلية عبر عدد من الدول الأوربية لزيارة الأماكن «المسكونة» وجمع مادة لبرنامج عن العفاريت والجن والأشباح... بدافع الثقافة، أو بغرض التسلية، سيان.[1]

ويكفي لمعرفة مدى تأثير هذا الموضوع وانعكاساته على حياة الناس في الشرق الأقصى أن نشير إلى هذا الأمر الواقع: معروف أن هونج كونج (مستعمرة التاج البريطاني التي عادت إلى الوطن الأم الصين بعد قرن ونصف من الزمان) هي لؤلؤة الشرق الأقصى، ومن أكبر المراكز المالية والتجارية العالمية والصناعية أيضا، وهي الميناء الثالث في العالم (بعد نيويورك، وروتردام بهولندا) وخزانة الشرق الأقصى بأجمعه.. وبما أن مساحة تلك المدينة محدودة، فإن ثمن المتر المربع في وسطها يتراوح بين ٥٠ ألف و٢٥٠ ألف دولار، ومع ذلك توجد مساحة مهدرة في قلب المدينة، خالية، تصلح لإقامة ناطحة سحاب

(١) سيان: أي مثلان، أو متماثلان. والمفرد: سي.

فوقها، ومع ذلك لا تجد من يشتريها أو يستأجرها. لماذا؟ لأنها ـ يقولون ـ «مسكونة» بالعفاريت أو الجن!! وإذا ما سألت أى رجل أعمال (من أصحاب البلايين) فى هونج كونج: هل يعقل هذا: وهل يليق بك أن تظن ذلك؟ فربما أجابك بابتسامة مهذبة صامتة، لكنه لا يتزحزح مطلقا عن التمسك برأيه، لاعتقاده الراسخ بأن الأرض «لمسكونة» حتما ملعونة، والبعد عنها غنيمة.. فالشائع بين الناس هناك، أن هذه القطعة تعيسة الحظ من الأرض يُسمع منها أصوات نحيب، وصراخ، وعويل، وحشْرجة، وضوضاء غريبة تمزق سكون الليل خاصة فى الليالى المُقْمرة، تعلو متصاعدة نحو السماء..

إلى هذا المدى يذهب اليابانيون وأهل الشرق الأقصى فى اعتقادهم بالسحر، وعالم الخوافى كالأشباح وما وراء المحسوسات أو ـ الطبيعيات. ولهذا، لم يكن غريبا أو مدهشا أن ترتب إحدى شبكات التليفزيون اليابانية الكبرى لإرسال بعثة إلى بعض الدول الأوربية لتسجيل «مشاهد وألوان» من المواقع والبيوت والقلاع والقصور المشهور عنها أنها «مسكونة» وإجراء أحاديث وحوارات مع العلماء والمتخصصين الأكاديميين المعنيين بهذا الأمر. وهذا بعض ما سجلوه أو عادت به البعثة التليفزيونية. وهو حقا: طريف، ومثير.. سيان!.

من المهم أن نعرف أسماء الشخصيات الرئيسية التى تكون منها فريق العمل بالمواقع، لأن أسماءهم ستتردد كثيرا فى هذا السياق..

أولا، اسم البرنامج التليفزيونى: «البيوت المسكونة بالأشباح فى كل العالم». ثم أعضاء الفريق: نى إيكورا سان، متخصص يابانى فى الظواهر غير الطبيعية وهو رئيس المجموعة ـ سينيشى ميساوا سان مدير الإنتاج ـ توشيهيكو إبينا سان مدير البرامج ـ هاشيبا سان مراقب السيناريو ـ تسونتوشى كاواشيما سن سيناريست ـ ناكاتا سان مساعد إنتاج وحسابات ـ شوك ويلسون مقدم البرامج ومحاور ـ إيكاوا سان المشرف على الإنتاج (أو المنتج المنفذ، وهو عندنا اصطلاح مبهم غير دقيق) ـ سودوسان/ تاناكا سان المصوران، والمساعد سيريل تاداشى شى إيزو. وقع اختيار الفريق ـ بعد البحث والفحص ـ على السيدة الشابة «إنجى» لتكون «الوسيط» لخبرتها وشهرتها فى الاتصال مع الكائنات غير

الطبيعية وصحبهم فى جولتهم «جيمى جويو» مؤلف كتاب «عالم الوسطاء الروحيين العجيب». . وهو الذى يروى لنا عن تجواله مع هذه البعثة الطريفة، وما واجهته من مواقف مخيفة.

فى إنجلترا، كان السيناريو المقترح يدور حول السؤال: هل مطاردة واصطياد أشباح العائدين بعد رحيلهم عن الدنيا تأتى بنتيجة مثمرة؟. .

على بعد نحو مائة كيلو متر من العاصمة لندن، تقع مدينة بدفورد، وبالقرب منها بدفورد شاير، حيث تمتد أراضى وممتلكات (ومن بينها حديقة حيوان) دوق ودوقة بدفورد، وهى عائلة متألقة ترجع شهرتها إلى أكثر من عشرة أجيال.

فى فترة ما بين الحربين العالميتين، كانت والدة دوق بدفور الحالى أول امرأة بريطانية تقود طائرة. وفى سن الخامسة والستين، اختفت وهى تقود طائرتها الخاصة. وبعد فترة عثر على طائرة الدوقة السيئة الحظ وعلى جثتها فى بحيرة.

منذ ذلك الحين، فوجئ خدم القصر والزوار، وفزعوا بظهور شبح السيدة الدوقة، وغالبا ما كانوا يشاهدون الجزء الأعلى من جسمها فقط، سواء فى حجرتها الخاصة، أم فى قاعة الاستقبال. وتكرر ذلك.

بل إن بعض الزوار شعروا أيضا بيد تربت على أكتافهم، فلما استداروا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام هذا «الكيان» أو «الشبح» بكل وضوح. صوَّر الفريق اليابانى ـ بعد ترقب ـ ما لاح أمامه، فظهرت فى بعض اللقطات الدوقة: أعلى جسمها فقط، ولم تظهر القدمان. فى مواقع أخرى، مثل بيوت معروفة فى «كِنْت» يظهر ويقال إنها «مسكونة»، لم يظهر التصوير أى اشكال بها غير مألوفة.

فى نفس تلك المقاطعة توقف فريق التليفزيون اليابانى عند «شجرة المشنوقين» فى الموقع الذى كان يعذب فيه المحكوم عليهم بالإعدام فى القرون الغابرة. على مقربة من تلك الشجرة ـ المَشْنقة، مازال قائما بيت قديم متهالك، كان يساق إليه المحكوم عليهم بالإعدام فى انتظار تنفيذ الحكم. أثناء وجود

الفريق بالموقع، ومعهم مترجمة يابانية استعان بها نى إيكورا (رئيس الفريق)، شعرت هذه المترجمة بدوار شديد مفاجئ وانقباض مع رعشة عنيفة عندما قبض «شيء ما» على سمانتىْ قدميها بقوة، وكأنه يمنعها من التقدم والاقتراب من المشنقة.

حدث نفس هذا الموقف فى مصنع فى منطقة مستنقعات «بر ـ Berre» فى جنوب فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. كانت مجموعة من العمال تميل ناظرة إلى خزان ضخم مملوء بالحامض المركز، وفجأة يسقط أحدهم فيه، فلما همَّ الباقون بالإسراع لنجدته، شعروا جميعا بأن «يدا» قوية تقبض على (سمانة) ساق كل منهم تمنعه من التقدم خطوة واحدة، ومات العامل المسكين متحللا من الحامض. وثبت فى التحقيق صدق رواية كل من شهد الحادث.

وروى نى إيكورا أنه سجل فى اليابان موضوعا مشابهًا ضمن تحقيق (ريبورتاج) تليفزيونى عن شجرة شَنَق شخص نفسه فوقها. وأعلن البرنامج عن حاجته إلى «وسيط» يستطيع الاتصال بالراحل المشنوق. لكن «سوموتورى» وهو عملاق، سمين، ضخم الجسم، يتجاوز طوله المترين، ويمارس المصارعة، اتصل بالمشرف على البرنامج «نى إيكورا»، وأخبره أن هذا محض هراء، وأنه لا يؤمن بصحة ما يدعيه. فلما عرض عليه نى إيكورا أن يحاول بنفسه التجربة، ضحك سوموتورى ساخرا، ثم قَبِل.

عند موقع الشجرة وُضعت كاميرا تليفزيونية ثابتة على بعد ثلاثمائة متر فى مواجهة الشجرة، ونُصبت خيمة بعيدا عنها وُضع داخلها جهاز المراقبة (مونيتور). وأجلسوا سوموتورى أمام الشجرة فى مواجهة الكاميرا فوق صخرة. وعلى مقربة منه جلست «الوسيط» (مثل إنجى التى تصحب الفريق اليابانى فى أوربا وتفعل مثلها) جلست تتمتم بعبارات، وتنثر فى الهواء أشكالا نجمية ذات خمسة أذرع (نجمات خماسية) من أجل «الحماية» من الأضرار وطرد التأثيرات السلبية.

فى داخل الخيمة جلس فى انتباه شديد أمام شاشة جهاز المراقبة: نى إيكورا

والمساعدون الفنيون: سرعان ما بدأ المصارع السمين الضخم يُظهر استياء وعصبية. وأخذ يكلم نفسه. كأنه لا يدرى ما حوله. إذ وقفت ذبابة على يده اليمنى، ثم راحت تتجول فوقها بحرية ولم يهشها عنه، ثم تبعتها دودة، ثم طائر صغير ظل يحوم حوله فترة. وهو مستمر فى الكلام غير المترابط أو المنطقى مثل: «اليوم الطقس حار. أختى عندها قروح بقدميها. سوف أخزن كمية من الأرز. الزهور كانت جميلة. وفى التليفزيون شاهدت برنامجا رياضيا، لكن يلزمنى شراء زوج من الأحذية. الكمان؟. إنها أفضل من الفلُوت، وثمار الكريز أفضل مذاقا. . . .».

بعد التسجيل سئل سوموتورى فأجاب أنه كان بطريقة ما واقعا تحت تأثير قاهر «لكيان أو جوهر» ما، كان يمنعه تماما من التفكير السلس أو النطق السليم فى جمل مترابطة. واعترف بأنه فى كثير من الفترات، شعر بوجود هذا الكيان وسمع صوتا يناديه: «إيه. . يا أنت.» «إيه. . يا أنت». . كما أحس بوخز شديد فى ذراعه لم يستطع أن يدفعه (بالهرش). وظل لفترة بعد هذه التجربة يهذى بكلام مستمر غير مترابط وبلا توقف، وكأنه بهذا يدفع عنه الخوف الذى استولى عليه.

بعد هذه التجربة التى استغرقت نحو خمس ساعات، طلبت الوسيط من كل الحاضرين والمشتركين فى التسجيل أن يرشوا على أجسامهم - عند عودتهم إلى بيوتهم - الملح ثم الاستحمام جيدا للتخلص من التأثيرات المؤذية «للمجاورين» لشجرة المشنوقين. وفى غمرة انشغال ذهن نى إيكورا بما جرى وشاهد أثناء التسجيل، نسى بعض نصائح الوسيط، ولكنه تذكر على الفور وهو يعبر عتبة مسكنه أنها قالت له: «بمجرد أن تتخطى عتبة دارك، ستشعر فجأة أن حرارة الجو ارتفعت بشدة، وأنك ستصاب بغُصة تكاد تخنقك»، وقد كان.

وفى المساء ارتفعت درجة حرارته إلى ٣٩ مئوية. وفى خلال عشرة أيام نقص وزنه سبعة كيلو جرامات، ولم يستطع عدد من الأطباء بالتتابع أن يجدوا سببا مرضيا لحالته.

فلما طال به الإرهاق والسأم، لجأ «نى إيكورا» إلى زيارة «وسيط» قديم

يعرفه، ولم يكن لديه أى علم بما جرى له. وما أن لقيه حتى قال له قبل الترحيب به: «ما كان يجب عليك أن تذهب إلى هذا المكان الملعون. إن اشباح المشانيق عبثت بصحتك ولو لم تأت الزيارتى اليوم بالذات، لكانت نهايتك محتمة بعد أسبوع..». وبدأ الوسيط يمارس عمله، وشيئا فشيئا أخذت صحة نى إيكورا فى التحسن.

فى فرنسا، اختار لهم «جيمى جويو» بعض البيوت «المسكونة» ومنها شقة المؤلف الموسيقى «ماريوس فانسان»، بشارع روما فى مدينة مارسيليا، والتى زارها جيمى منذ بضع سنوات زيارة تحقيقية بحثية.

كان الجو حارا، فى ذروة الصيف: يوم الخامس عشر من يوليو. نزل أعضاء الفريق التليفزيونى ضيوفا على ماريوس فانسان الذى تحول من التأليف الموسيقى إلى الاشتغال بإدارة سلسلة من المطاعم. كان اللقاء الأول فى أحد مطاعم ماريوس المطل على الميناء القديم، وبحضور الوسيط إنجى وصديقتها (وسيط أيضا) مهندسة الديكور «جانى آشار» التى مارست لفترة طويلة البحث عن الآثار فى منطقة «حمامات جيرو» المشهورة بوجود أشباح فيها، وحضر طعام الغداء أيضا مع المجموعة صديقة حميمة لها: الفلكية «مونيك زانا» التى تهتم كثيرا بالوسطاء النفسيين والتخاطر (الاتصال عن بعد).

بعد الغداء، اعتذر ماريوس عن مصاحبة الفريق التليفزيونى إلى شقته لانشغاله تماما فى شئون المطعم، وأعطاهم مفتاح الشقة المهجورة على وعد باللحاق بهم فى الحادية عشر مساء. إنها شقة تخلو من نصف الأثاث تقريبا. لكن بها مئات التحف واللوحات القديمة ومختلف الأشياء الغريبة غير المتجانسة، تعطى انطباعا بعدم الارتياح. وماذا يفعل هنا فى هذا المكان غير المنسق؟ لا شىء منذ عام ١٩٥٤ حين كان مؤلفا موسيقيا متزوجا. إنها شقة فسيحة أمكن تقسيمها إلى شقتين منفصلتين: إحداهما للعمة لويز، والأخرى للعروسين الشابين. قضى الزوجان ليلة الزفاف فى شقتهما على أمل السفر فى اليوم التالى لقضاء شهر العسل، لكنها فى واقع الأمر كانت ليلة من الجحيم: أصوات صراخ وضوضاء مفزعة، صدامات حادة، أشياء من الآثاث والأدوات تتطاير فى الهواء، ثم تسقط محطمة أو مهشمة بفرقعة مخيفة، حتى إن الكلب

«الكانيش» ظل يعوى ويئن، كأنه يعانى من ألم شديد، أو رعب قاتل.

أسرعا فى الصباح بالهروب إلى إيطاليا وفقا لبرنامج قضاء عطلة الزواج السعيد.. مضى كل شىء فى الرحلة على أحسن حال، ثم كانت العودة إلى بيت الأسرة تغمرهما السعادة والبهجة. فى نفس الليلة للعودة، استيقظ الزوجان على صوت ضوضاء صاخبة ومفاجئة تأتى من ناحية المطبخ: أدوات الطعام والأكواب تتصادم، أطباق توضع برفق على امتداد المائدة، قطع من الأثاث تتحرك وتنتقل من أماكنها. تساءل الزوجان، وهما فى ذعر وانكماش بالسرير: هل العمة لويز تجهز طعاما وتعد المائدة فى الثالثة صباحا؟. تشجعا وتوجها معًا فى حذر شديد إلى المطبخ. كل شىء مرتب فى مكانه. المائدة نظيفة وخالية من الأطباق والأدوات. تسللا إلى شقة العمة لويز. إنها مستغرقة فى النوم ولعلها تستمتع بأحلام لذيذة. هل كانا يحلمان؟. لا. وهل يشتركان فى حلم واحد؟ والدليل: الكلب الكانيش يرتعد من الفزع. هل هى إيحاءات ذكريات فيلم عن الرعب شاهداه من قبل معا؟ أبدا.. فهما لم يذهبا معًا من قبل للسينما.

فى الليالى التالية حدث نفس الشىء، ونفس الهلع الذى أصاب الكلب.. طرقات عنيفة على باب الحجرة. والكلب يهمهم ويتجه نحو الباب، ثم يتراجع بسرعة فى اضطراب. يفتح ماريوس الباب: لا يجد أحدا.. فى الصباح يخبر ماريوس عمته بما حدث، لكنها لا تفهم شيئا. مازال الكلب مضطربا فزعا، يحاول ماريوس تهدئته، فيربت برفق على رأسه وظهره مع الحذر من أن يعضه. لكن يبدو أن الكلب لم يعد يعرف صاحبه..

لم يكن هناك شك فى أن البيت «مسكون». وذات مساء، رفض الكلب بإصرار أن يدخل حجرة لويز، نظر إليها من بعيد فى خوف وهو يرتعش.. فى الصباح وجدا العمة ميتة فى غرفة المعيشة. ما الذى جعله يرفض أن يتبع لويز إلى حجرتها؟ هل «شاهد» المسكين شبح الموت؟..

تتابعت الأيام والشهور، وتلك الظواهر تتكرر وتزداد كثافة وسوءا. فى

بعض الأيام كان يستقبل ماريوس وزوجته جانين زوجين من أصدقائهما المقربين، فيتناول الجميع طعام الغداء عنه الظهيرة. فى أثناء تناول الوجبه - وأحيانا فى بدايتها تغشى الأربعة معا سنة من النوم، فيضع كل منهم رأسه على ذراعه المنبسط على المائدة، ثم يستيقظون بالتتابع، واحدا بعد الآخر، بعد ربع أو ثلث ساعة.. فلما تكرر ذلك ثلاث مرات انقطع الزوجان الصديقان عن الزيارة.. ولم يكن النوم المفاجئ للجميع معا هو السبب الوحيد: فقد شاهد الصديقان وسمعا مرآة الحائط الكبيرة تهتز بعنف، وباب غرفة الطعام يُفتح ويُقفل وحده بشدة. ثم سمعا صوت العمة الراحلة تنادى بصوت خفيض ابن أخيها وزوجته..

فى ليلة أخرى، حضر لزيارة ماريوس بعض الأصدقاء وفى أثناء محادثتهم، سمعوا طرقا بالباب. ذهب ماريوس ليفتح، وفى تلك اللحظة هبت ريح شديدة مزمجرة من داخل الشقة وانطلقت نحو الباب، وكأنها تحول دون فتحه.. وتبع ذلك دقات عنيفة على الحوائط أثارت فزع الحاضرين، ثم طارت صورة كبيرة للمؤلف الموسيقى وهى داخل إطارها الثمين معلقة على الحائط، وتدحرجت كالعجلة حتى اصطدمت بركن الغرفة وتهشم إطارها.

فى مساء يوم آخر، حضر والد جانين لزيارة الأسرة وقضاء العطلة الأسبوعية معها، إلا أنه خرج مهرولا مفزوعا: كان مستلقيا باسترخاء على سرير فى غرفته، وإذا به فجأة يرى أغطية السرير ترتفع وتتكور، ثم تندفع مصطدمة بالباب فى فرقعة مكتومة..

وإبراهيم، السنغالى المسلم صديق ماريوس، جاء للزيارة ضيفا ليومين قبل سفره من مارسيليا - التى وصل إليها لتوه - إلى باريس. فى مساء يوم وصوله، وكان وحده فى غرفته، قام يؤدى الصلاة متجها نحو قبلة المسلمين إلى مكة (المكرمة). وبينما هو ساجد، سمع صريرا ينبعث من مفرش السرير خلفه. فلما أتم صلاته التفت مندهشا ناحية الصوت، فرأى على حافة السرير سيدة جالسة نظرت إليه بُرهة، ثم قامت تمشى فى اتجاه الحائط.. ثم اختفت، واختفى أيضا ابراهيم.. عن الوعى.

فى الليلة ذاتها، شعر إبراهيم وهو يحاول أن يستجلب النوم، أن يدا باردة

كالثلج تتحسس وجهه وصدره، مما عجل بسفره فى الصباح الباكر.

ورأى ماريوس فيما يرى النائم عمته وهى حزينة قلقة للغاية، لأنها ماتت ولم تُدهن بالزيت المقدس... فاستيقظ من نومه مهموما متحيرا لا يدرى ماذا يفعل. توجه إلى الكنيسة وأخبر القس بما يلاقيه من عذاب فى مسكنه، لكن القس رفض بإصرار قاطع أن يذهب معه لطرد «الشياطين»... فى نهاية المطاف، لم يجد ماريوس وزوجته بديلا عن مغادرة البيت بلا رجعة، وترك به غالبية الأشياء.

لذا.. توجه فريق التليفزيون اليابانى إلى بيت ماريوس بشارع روما، لكنه لم يستطع أن يصور شيئا ذا قيمة، سوى أن جميع الحاضرين ـ عدا إبينا سان ـ شعروا فى جلسة الانتظار الصامتة التى تخللتها تمتمات متكررة من «الوسيط» إنجى، شعروا بتنمل كل أطرافهم (الأيدى والأرجل) من حين لآخر، وبتيار شديد من الهواء، فى الغرفة القائمة المغلقة، يندفع من الحائط خلف ظهورهم، ثم يتراجع، وبذبذبات قوية تهز أجسامهم للحظات، ثم تتوقف، وبعدها يسمعون صوت طنين يعلو ويهبط ثم يسكت فجأة. وفى حجرة بالمنزل نوافذها مغلقة، صوروا سريرا هزازا لطفل صغير، يتأرجح تلقائيا ـ وليس به طفل ـ لفترة، ثم يتوقف فجأة كأن به فرملة، مع تكرار ذلك..

اثنان فى المجموعة، أو فريق العمل، يستحقان الوقوف عندهما قليلا. أولهما: نى إيكورا سان. إنه شخص متزن، ليس خياليا ولا متطرفا فى إيمانه بغير المحسوسات، على الرغم من معايشته ـ من خلال البرنامج التليفزيونى الذى يعده ويشرف عليه فى اليابان لفترة زمنية طويلة ـ لتجارب متعددة فى المواقع، ومشاهداته واتصاله المستمر بالوسطاء. إنه لا يحاور ولا يناقش فى موضوعات الظواهر غير الطبيعية، ولا فيما يفعله الوسطاء، خاصة فى اليابان. إنه يتأمل ويشاهد ما يجرى بتركيز وانتباه، ومهما بدا من تأثيرات أو مؤثرات فى الموقع وعلى الوسيط والحاضرين، فإنه لا يعلّق بشىء، ولا يرفض الاهتمام بأبسط شىء.

أما إبينا سان، فهو يقول صراحة:

ـ لم أشعر بشيء مما حدث للآخرين (من أعضاء الفريق فى المواقع)، لكنى أعترف بإعجابى الشديد بردود الأفعال على «نى إيكورا» واتزانه. ويبدو لى أنه متأثر حقا ومدرك لوجود أشياء «غير طبيعية». إننى على يقين من أن الأشخاص الذين قابلتهم واشتركوا فى العمل، هم جميعا مخلصون أمناء ولا «يمثلون سينمائيا»، لكنى بصراحة نصف مصدق لأقوالهم. ربما لأننى أميل بشدة نحو التفكير العقلى والملاحظة العلمية، ولا أتردد فى أن أضع نفسى تحت التجربة العملية إذا تطلب الأمر ذلك. إننى باختصار لست منحازا، ولا رافضا.

أما عن اليابان ذاتها، فإن الشائع هناك: نزول أرواح الموتى يوم ١٥ أغسطس لمخالطة الأهل والأصدقاء الذين يحتفظون جيدا بذكراهم ويفعلون الخيرات من أجلهم، سواء أكانوا فقراء، أم أغنياء. وفى اليوم التالى ـ ١٦ أغسطس ـ تعود الأرواح إلى عالمها السماوى سعيدة بما لقيت وتلقت من مشاعر الحب فى يوم الزيارة السنوية للأحياء. ومن أجل ذلك اختارت القناة التليفزيونية اليابانية المنتجة لهذا البرنامج، أن يذاع ـ لمدة ساعتين ـ يوم السادس عشر من أغسطس. ومن بين فقراته: إشارة ـ من خلال تحقيق (ريبورتاج) مصور ـ إلى ما حدث فى بريطانيا منذ ثلاثين سنة.

قرر التليفزيون البريطانى إعداد برنامج ـ فى شكل ريبورتاج ـ عن قصر قديم «مسكون» تجرى فيه ظواهر غير طبيعية. وضع فريق العمل الأجهزة فى مواقعها، ومنها كاميرات السينما (لم تكن أجهزة الفيديو مستخدمة بكثرة حينذاك) وجاهزة لالتقاط ما يظهر من «أشباح» أو تأثيراتها. أمام واجهة القصر، آلة تصوير موجهة نحو النوافذ ومتصلة ببقية الأجهزة بالداخل عن طريق دائرة مغلقة، وفى الطابق الثانى بالتحديد، مجموعة من الكاميرات الكبيرة الثقيلة الوزن مركبة على قواعد متحركة. فى نهاية الاستعدادات وقبيل بدء التشغيل، إذا بكاميرا تزن بمحتوياتها، أكثر من مائة كيلو جرام تطير فى الهواء نحو النافذة، فتهشمها، وتندفع إلى الخارج ثم تسقط فى فناء القصر على بعد خطوتين اثنتين من الفنيين.. وأثناء عرض البرنامج على الهواء، وأمام

الملايين من المشاهدين: ينشق «فستان» مقدمة البرنامج من أعلى إلى أسفل.. ومن حسن حظها أنه كان من الظهر، وهى واقفة وحدها أمام الكاميرا. بعد قطع سريع على البرنامج ومرور لحظات، عادت المقدمة بفستان آخر تستكمل عرض البرنامج. وفجأة وهى واقفة وحدها بالاستوديو، ينشق الرداء مرة أخرى من أعلى إلى أسفل، وأيضا من الخلف، كأن «أحدا» يستخدم فى شقِّه شفرة (موس) حادة وبدقة بالغة.. وتكرر نفس الشىء للمرة الثالثة.. هل هى مداعبة من «شبح» ظريف؟...

إذن.. يكون مناسبا فى النهاية أن نقول: سايونارا.. أى (وداعًا)، كما يقال فى اليابان..!!.

تحـــدّى اليـــأس

قد نحتفظ جميعا فى الذاكرة بكلمة الزعيم المناضل مصطفى كامل، التى جرت مجرى المثل « لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس»..

فاليأس فعلا قاتل، أو على الأقل يثبط الهمة، يضيع فرصا متاحة قد نغفل عنها فى ساعات الضيق والألم.. والاكتئاب. وما الحياة إلا مزيج من الرضا والغضب، من الراحة والنصَب، من التحدى المستمر، والكدح المستقر. ولم يخطئ شاعر الأندلس صالح بن شريف الرندى حيث قال: «من سَره زمن؛ ساءته أزمان»!.(١)

وهل كان تاريخ الحكمة الإنسانية يتوقع أن تنطلق شرارة الوعى عند بوذا الفيلسوف فيتوهج ذهنه ويتألق، انطلاقا من كلمة جرت على لسان حوذى (سائق عربة أو «عربجى»)؟!.

كان أميرا من بيت أسرة ملكية فى الهند، فخرج يوما من قصره راكبا عربته الفاخرة تجرها الجياد المطهَّمة، فمر فى طريقه بعجوز يائس مبتئس، ثم اعترضته جنازة يشيعها جماعة من العامة حفاة شبه عراة يبكون ويولولون، ثم وقع بصره بعد قليل على مريض بالجذام، متكور على قارعة الطريق تخلت عنه الإنسانية، وما عاد فى سمْت الإنسان، فسأل الأمير سائق العربة:

«لماذا يتألم هؤلاء الناس كل هذا الألم؟». فقال السائق فى عفوية مبهرة «لأن هذه هى الحياة أيها الأمير»!.

---

(١) من قصيدة يرثى فيها ضياع الأندلس مطلعها:

لكـل شىء إذا ما تم نُقصـان ... فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دول ... مَن سَرَّهُ زمن؛ ساءته أزمـان

من تلك اللحظة المضيئة، كان بوذا وكانت البوذية التى يعتنقها اليوم أكثر من ثلاثمائة مليون من سكان الهند والصين واليابان وسيلان وتايلاند وكمبوديا وبورما والتبت ومنغوليا وسيبيريا، بعد ألفين وستمائة سنة من وفاته!.

لا يأس إذن مع الحياة.. حتى لو بدت فى بعض مراحلها قاسية، مؤلمة عاتية قاهرة..

هذه قصة، أو بالاحرى واقعة حدثَت فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، نسوقها إلى كل أم، وأيضا إلى كل أب وكل أسرة تحنو على أبنائها، وتَدْرأ عنهم الأخطار والأشرار ما استطاعت.. فماذا لو كان المرض، وعز الدواء، وخرج الأطباء المتخصصون بأنه.. لا أمل فى شفاء أو نجاة من الموت المقترب؟؟..

إنهما اثنان معاً يصارعان المأساة فى إصرار عجيب عظيم.. قالت الأم «ناديج»: إن ابنتى «أورور» (أى : الفَجر القطبى) أثبتت أن المعجزة قائمة، وأن رحمة السماء فوق قدرات البشر. قالت ذلك بعد أربع سنوات كاملة من المعاناة ونضال التحدى.

عندما وُلدت أورور، كان وزنها نحو ثلاثة كيلو جرامات. طفلة جميلة، أضاءت حياة أمها المظلمة، بالبهجة والأمل، حتى أنها عبَّرت عن شعورها بالفرحة فقالت للممرضة بالمستشفى. «إن أورور سوف تتألق مع بداية القرن القادم، الحادى والعشرين». بدأت الطفلة تنمو فى حيوية وتنطق فى وقت مبكر، فلما انفصل الأب عن الأم، زاد تعلق الطفلة بأمها وأصبحت لصيقة بها. وما أن تجاوزت عامها الأول بقليل، حتى لاحت بوادر الخلل فى مسار الحياة: إن الطفلة تعانى من التهاب فى الغشاء المخاطى بالأنف والحلق: "Rhinapharynigitis" وتكرر ذلك. ولما كانت درجة حرارتها عادية، غير مرتفعة، فإن الطبيب طمأن الأم ولم ير خطرا على صحة الطفلة. لكن الأم لم تهدأ بالا، خاصة وهى تعمل ـ مضطرة ـ فى مطعم طوال النهار، وعندما تغادره فى المساء وتعود إلى ابنتها تراها شاحبة واهنة. أدى قلق الأم إلى اضطرابها فى

النوم والتعود على المعاناة من الكابوس المزعج. بعد فترة من التصبر والتدبُّر، دفعتها غريزة الأمومة إلى التوجه بابنتها إلى المستشفى وطلبت فحصا شاملا لها، وتقريرا وافيا عن حالتها. اكتشف الأطباء لأول مرة آثار مرض فى القلب. وزيادة فى الحيطة، أرسلوا ناديج وابنتها إلى مستشفى تخصصى للأطفال المرضى، فهناك يكون الفحص أدق والتشخيص أضبط. أحست الأم وهى تتابع الفحص وكأنها تشاهد فيلما دراميا مرعبا يمس جوهر حياتها وحياة «أورور». وعندما فرغت من تهيئة ابنتها للخروج، قال لها الأستاذ كبير الأطباء: «دعى ابنتك تستريح قليلا، وأرجو أن تتبعينى إلى مكتبى».

تركتْ الطفلة فى قاعة بالمستشفى مجهزة للعب الاطفال، بعد أن احتضنتها مهدئة، ثم توجهت وجِلة إلى مكتب الأستاذ الطبيب. خلع نظارته، فأدْركت من ملامحه عدم الارتياح، وبدأ يشرح لها باستفاضة لا تخلو من تعبيرات طبية فنية حالة المرض. لم تُطِق صبرا، فقاطعته فى لهفة: «يا دكتور هل أنت على وشكِ أن تقول لى أننى سأفقد ابنتى...؟» فوَجِئ الأستاذ بالسؤال. لاذ بالصمت.

تحكى ناديج - فيما بعد - وهى تستعيد الذكريات: «كنت أتعجل أن يخبرنى بشىء مطمئن، أى شىء... ولكن عبثا.. بعد فترة من الصمت القاتل، صارحنى بأن فرصة أورور فى الحياة قصيرة، وفى الظروف الراهنة يعجز الطب عن إجراء عملية جراحية لها. لم استطع أن أمنع نفسى من البكاء. قلت له إن هذه أول مرة أبكى فيها أمام أحد من الناس. جففتُ دموعى وتوجهت نحو ابنتى. كانت تلعب مع بقية الأطفال. لم أرها من قبل بهذه البهجة وتلك الثرثرة. لقد أخبرنى الطبيب أننى فى مواجهة تلك الكارثة لابد من التحمل والصبر. أن أساعدها على الاستمتاع بما تبقى من حياتها قدر ما أستطيع. ها هى أمامى تضحك وتلعب. ولكنى من تلك اللحظة، أدركت أننا معا سوف نبدأ رحلة من الصراع».

عندما رجعَتْ إلى البيت، أخذتْ تفكر فى المعلومات التى تلقتْها من الأستاذ الطبيب وتعيش فى إطارها. إن الضغط المرتفع فى الأوعية الدموية الناتج عن

عيب خِلْقى فى القلب، يسبب لأورور خللا فى التزود بالأكسجين. إن جو باريس ـ التى تسكنها ـ ملوث وينقصه الهواء النقى.

بعد ثلاثة أيام، كانت الأم وابنتها المسكينة فى القطار المتجه إلى الجنوب. وبمساعدة من صاحب المطعم التى كانت تعمل به الأم، التحقت بمصنع للحلوى فى ضواحى مدينة مارسيليا، واستقدمت ناديج والدتها ليقيم ثلاثتهم فى شقة صغيرة بالدور الأرضى ببيت قرب المصنع به حديقة محدودة المساحة، لكنها على أية حال حديقة مشمسة، بها أُرجوحه. إنه سباق مع الزمن. وهو لا يخلو من أمل: فهنا فى مارسيليا وغير بعيد من هذا المسكن الجديد، تعيش «فيتريا» منذ نحو عشرين سنة بقلب نُقل إليها، بدلا من قلبها الذى تلف تماما. إنها حالة إيجابية يعرفها الجميع، وفيها بريق من رجاء! وفى مارسيليا ذاتها الطبيب الأستاذ «مونتى» الشهير ببحوثه فى نقل أو زراعة الأعضاء. لم تتردد الأم. أمام البروفوسير مونتى جلست صامتة تستمع لقراره الصارم: فى هذه المرحلة من الدراسات والبحوث، مازال نقل القلب والرئتين معا فى مجال التجربة، خاصة بالنسبة لسن أورور، ثم قال الطبيب: «عليكِ وحدك يقع عبء تدعيم حياتها. أنت الان أفضل طبيب بالنسبة لها...». يا لَه من قرار حاسم يقصم الظهر!

زودها الأستاذ الطبيب بقائمة من التعليمات: لابد أن تتجنب أورور تلوث الهواء، والأماكن المرتفعة، واجتناب الاتصال بالأطفال، حتى لا تصاب بعدوى، وحمايتها من أى انفعال شديد أو صدمة نفسية. باستطاعة الأم أن تلتزم بتنفيذ كل هذه التعليمات.. إلا أنها اختارت أن تمارس «مباراة» التحدى مع الحياة بكل أوراقها مكشوفة: بإحساسها فقط ـ إحساس الأم ـ وهو الذى سيوجهها، وليكن ما يكون: إذنْ لتحيا ابنتها مثل كل الأطفال.

لم ترسلها إلى مدرسة: لكنها تشارك الأطفال ألعابهم. الدليل الوحيد على مرضها: أطراف يديها .ورجليها زرقاء اللون، وشفتاها تميلان إلى السواد، فالدورة الدموية فى جسمها مضطربة. برعاية الأم الشديدة اليقظة، لم تُصب أورور بمرض أو عدوى طوال عامين مما يُصاب به الأطفال عادة.

ظلت الأُم متقدة الذهن مفتحة العين على ابنتها، فهى تدرك تماما أن أورور يمكن أن يَدْهمها الاختناق فى أية لحظة. راحت تكتب وتتوسل إلى كل من تسمع عنه من مشاهير الأطباء فى العالم: فمثلا، سافر ملف أوراق وتقارير وفحوص أورور إلى البروفيسور «شونواى» بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو أحد الرواد فى جراحات نقل القلب. وفى كل مرة يأتى الرد إلى ناديج قاسيا لا يرحم: إن حالة أورور ميئوس منها، ويستحيل إجراء جراحة لها.

تقول الأم: «كان الموقف أشبه بمباراة فى الملاكمة. أتلقى ضربات، ثم انتبه واقف لأتلقى ضربات جديدة. قلت لنفسى: لا يجب أن أترنح أو أنهار، فحياة البُنية تعتمد على: إذا ما سقطْتُ سقطَتْ معى. كنت أعلم أننى قد أفقدها فى أية لحظة فى ساعة ما، اليوم أو غدا. وفى كل مرة كنت أجد عندى بعض القوة تتركز حول فكرة وحيدة: إنقاذها....».

كبرت الآن أورور. أدركت خطورة حالتها، وهذا الإدراك عجَّل بنضجها مبكرا... ففى زيارة ذات يوم للتأمين الصحى علمت المسكينة بالحكم الصادر عليها. فقد تكلم موظف أحمق بالتأمين الصحى أمام الطفلة بكلمات غبية بشعة فوجئَتْ بها. قال على مسمع منها: ماذا تنتظرين يا سيدتى لإنجاب طفل آخر؟ إن ابنتك على وشك الموت.....!

رفعتْ أورور عينها نحو أمها فى تساؤل وحيرة وأخذت تبكى. تقول الأم: «لم أستطع أن أقول لها إن هذا غير صحيح، لكننى حاولت أن أطمئنها. قلت لها فى هدوء وثقة: سوف نجد طبيبا حاذقا يا أورور. إننى أعدك بذلك. لسوف نجده. وهكذا علمت أورور بتفاصيل مرضها. بذلتُ جهدا بعد ذلك لكى أُخفى عنها حيرتى وقلقى حتى تمضى الحياة بصورة طبيعية».

انتقلت ناديج مع أورور إلى قرية تسطع فيها الشمس وتحيط بها شجيرات الكروم (العنب) وأشجار الصنوبر القصيرة، ويتجدد هواؤها برياح الشمس المنعشة. إنهما يسكنان حجرة واحدة. وعين الأم لا تغفل كل ليلة ولا تنام إلا إذا اطمأنت على تنفس ابنتها. بعد فترة لاحظت أن أنفاس أورور المتثاقلة

تحولتْ إلى لهثات متسارعة، لكنها ليست قوية، وبها صفير خافت. إن هواء التنفس لا يدخل بسهولة فى رئتى أورور. إن المسكينة الصغيرة تختنق. جزعت ناديج. أسرعت تطلب الإسعاف الذى رفض نقل الطفلة إلى المستشفى لخطورة حالتها التى لا تتحمل النقل. كادت الأم أن تُجن. وجدت النجدة فى التأمين الصحى الذى أسرع بنقلها إلى المستشفى. الحالة خطيرة. إن كل سنة مرت بها كانت بمثابة نجاح وانتصار على الموت. أما الآن، فلابد من عمل سريع.

عندما أفلحت أورور فى إطفاء الشمعة الخامسة فى عيد ميلادها، كان النبأ السعيد يغمر الأم بالأمل والفرحة: تَمَّت أول عملية جراحية فى إنجلترا، لنقل قلب ورئتين معا لفتاة صغيرة أسترالية فى نفس سن أورور تقريبا، ومصابة بنفس حالتها المرضية. والطبيب البارع الذى نجح فى ذلك هو الجراح المصرى «مجدى يعقوب» المتخصص الشهير فى هذا المجال، والذى أجرى بنجاح عشرات الجراحات الصعبة. لم تضيع ناديج لحظة.

اتصلت بالأستاذ الطبيب فى لندن، وطمأنها. لكن ظهرت مشكلة: فتكاليف الجراحة والعلاج فى بريطانيا باهظة، لا قُدرة للأم عليها. ورفض التأمين الصحى تحمل الإنفاق، لأن الجراحة ستتم فى لندن بمستشفى خاص غير حكومى، وقانون التأمين الصحى لا يسمح بذلك. لم تعجز الأم. كتبت رسالة مفتوحة نشرتها عدة صحف تستصرخ فيها ضمائر القادرين على مساعدة أورور فى محنتها. ولم تنتظر. أخذت تنتقل من قرية إلى قرية ومعها مقعد صغير من القماش ومنضدة صغيرة مطوية، فتجلس وبجوارها صورة كبيرة لابنتها أورور، وكلمات موجزة بخط كبير تناشد أهل المروءة والنجدة. إنها لا تتورع عن عمل أى شىء، حتى ولو كان الاستجداء، لإنقاذ حياة طفلتها التى يطاردها الموت. اتصل بها بعض كبار الفنانين يبدون استعدادهم للإسهام، والأمير رنيه، أمير موناكو... بعد أيام، كانت ناديج وأورور فى القطار المتجه إلى لندن (بعد عبور بحر المانش) وتكفل تجار من القرية التى تسكنانها بنفقات السفر. مازال الناس بخير!.

على رصيف المحطة فى لندن سألت أورور أمها، وهى تشير إلى الكلب

الصغير ـ اللعبة ـ الذى بيدها «ماذا نسميه يا أمى؟». «النصر». نعم النصر، لأننا على وشك الفوز.

تقول ناديج: منذ اللقاء الأول مع الدكتور يعقوب شعرتُ أخيراً بالراحة والاطمئنان، وتضاعفت شجاعتى. قال لى فى ثقة: «ليست توجد حالة ميئوس منها. هناك دائما أمل».....

أول كلماته مبشرة متفائلة. كنت أتلهف على سماعه من سنوات. ترددتْ أورور مع أمها على لندن ثلاث مرات لإجراء فحوص واختبارات. إن الأموال التى تجمعت من الخيرين لتوضع تحت تصرف أورور كانت كافية لتغطية نفقات تلك المرحلة، بما فيها طائرة صغيرة طبية خاصة مجهزة وبها طبيب طوارئ للمراقبة أثناء الرحلة. الأمر الآن يتوقف على فترة انتظار الحصول على قلب ورئتين من شخص حديث الوفاة لنقلها إلى جسم أورور ولا يرفضها. وليس هذا متعذرا فى إنجلترا.. فحوادث السيارات فى الأسفار يروح ضحيتها الكثيرون. ونتيجة لحملات صحافية مكثفة، أصبح شائعا فى أوروبا أن يَحمل عدد كبير من سائقى السيارات طواعية مع ترخيص القيادة موافقة على منح أعضاء سليمة من أجسامهم، إذا أدركتهم الوفاة نتيجة حادث بالسيارة، إلى من يحتاجون إلى تلك الأعضاء من المرض ذوى الحالات الحرجة المسجلين على قائمة الانتظار. ولكن لحسن الحظ، الأطفال الذين يتوفون فى حوادث السيارات، قليل عددهم.

ثم تحدد موعد إجراء العملية الجراحية عند وصول قلب ورئة ملائمين من إيطاليا، لكن إجراءات الجمارك العقيمة فى لندن استغرقت وقتا أطول مما يجب بالنسبة لسلامة القلب والرئة (فهى لا يجب أن تطول أكثر من ساعات معدودة) فألغى إجراء الجراحة.

بعد أسبوع جاء الفرج. فى كلمات بسيطة، شرحت الأم لابنتها ما سوف يحدث، وأن الأمر ليس سهلا، ولا يخلو من خطر، ولكنها (الأم) راضية تماما لسببين: أن الحب المتبادل بينهما تفوَّق على كل الآلام والأحزان والصعاب واليأس. والأمر الثانى: أنها فعلت كل ما تستطيع من أجل المحبوبة الغالية

أورور. استأذنت الطفلة من الطبيب أن تحمل معها إلى غرفة الجراحة الكلب اللعبة الصغير «النصر» وكانت لفتة بارعة من الأستاذ الطبيب البارع «مجدى يعقوب» أن يأمر بوضع قناع واقٍ للكلب إرضاء لأورور، وزيادة فى طمأنتها. وظلت الأم بجوارها.

فى الرابعة والنصف عصرا انتهت العملية الجراحية، ثم نُقلت الطفلة إلى قسم العناية الخاصة أو المركَّزة. وعندما فَتحت عينيها بعد ذلك، وجدتْ أمامها وجه أمها الواجلة عليها. أمسكت الأم بيديها وضغطت برفق، حانية عليها. ورغم أن أورور مازالت تحت تأثير المخدر وموصولة بأنابيب التنفس المساعدة، إلا أن الأم لم تتوقف عن مخاطبتها بعبارات ودودة مشجعة. وعندما أفاقت الابنة تماما قالت لها الأم، وعينها تدمع: «إننا على وشك الفوز يا حبيبتى»، فردت أورور: «لا ياأمى، إننا فزنا بالفعل»!.

فى اليوم التالى، عندما نُزعت عنها الأنابيب وأصبحت تتنفس تنفسا طبيعيا، نظرتْ إلى يديها وقدميها. لقد زال عنها اللون القاتم الكئيب إلى غير رجعة. وبعد نحو أسبوعين كانت فى طريقها إلى مسكنها فى فرنسا، وألحقتها مثل بقية الاطفال بالمدرسة.

«لقد عشتُ أقسَى وأحلىَ أيام حياتى» هكذا قالت الأم. ولم تتوقف عند هذا الحد وتكتفى. كوَّنت جمعية لرعاية الأطفال الذين يصابون بمثل الحالة التى عانت منها ابنتها وتقديم المساعدة الممكنة لهؤلاء وأسرهم. قالت: «إننى على استعداد لأن أنزل إلى الطرقات ـ إذا ما دعت الحاجة ـ لكى أستجدى الناس وأجمع الأموال من أجل هؤلاء، لأننى عشت المأساة فى مثل تلك الحالة....».

نعم يا سيدتى!، فقديما قال أهل الصفاء والنقاء: من ذاق عرف!.